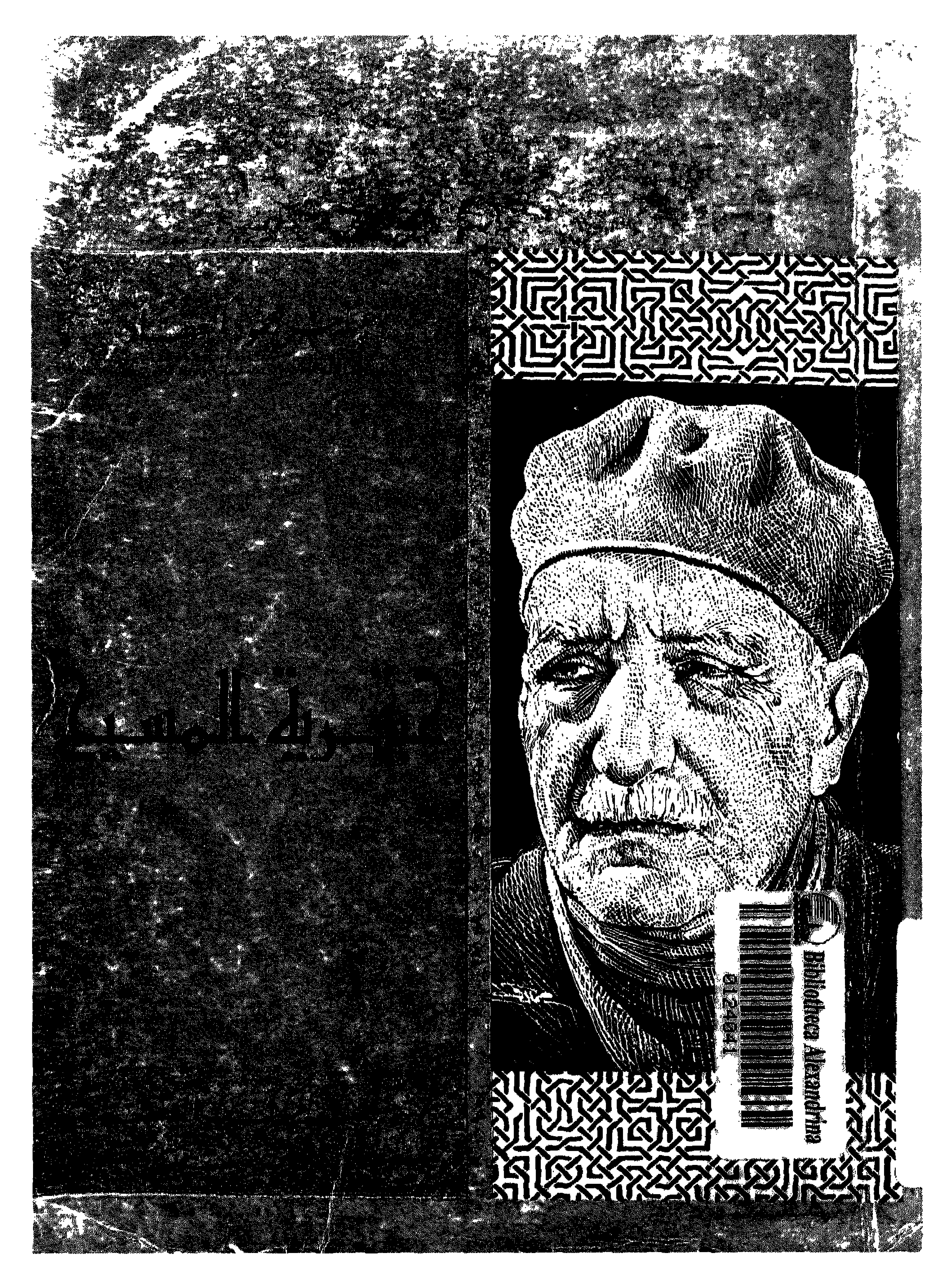

Bibliotheca Alexandrina

عبقرية المسيح

في التاريخ وكشوف العصر الحديث

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات

المكتبة العصرية - بيروت - صيدا

تقديم

طبع هذا الكتاب مرتين في حياة واضعه الأديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد • ولما نفدت الطبعة الثانية أو كادت تفضل السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت بتحمل عبء الطبعة الثالثة لهذا الكتاب حرصا منه على توفير الفوائد الأدبية والعلمية والدينية التي تنطوي عليها آثار العقاد ، وحثا للأجيال الحاضرة والقادمة على ورود مناهل المعرفة التي تبدو غزيرة ثرارة في جميع ما أبدعته قريحة هذا الأديب العبقري العملاق •

ونحن في تقديم هذا الكتاب « حياة المسيح » لا نرمي الى تلخيصه ، ولا الى شرح ما تضمنه من آراء وأفكار وأبحاث ، لأن قارىء العقاد يفترض فيه أن يؤخذ بسحر بيانه ، فيستغرق في تتبع أفكاره حتى يبلغ نهاية المطاف ، دون أن يشعر بالحاجة الى شرح أو بيان • وكل ما نبغيه من هذا التقديم هو ذكر لبعض النماذج في التحليل والتعليل والتصويب ، وهي الأمور الثلاثة التي يلحظها القارىء في كتب العقاد جميعها ، ويشعر معها بقوة الحجة التي لا يجد العقل مناصا من التسليم بها والركون اليها •

وأول ما تناوله بالتحليل والتعليل تلك الظاهرة الفريدة في العالم الانساني ، ظاهرة دعوة النبوة التي قادته المقارنة الطويلة بين الديانات الى التأكيد بأن منشأها الأول هو مدن القوافل • ويعلل ذلك بأن هذه المدن مثل : أور ، وبعلبك ، وبيت المقدس ، ومكة ، ويثرب ، ومدين ، ومجلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز ، كانت بيئات وسطى بين الحضارة والبداوة ، فلا هي متحضرة تحضرا كاملا ، ولا هي متبدية في مجمل جوانب الحياة فيها • وتبعا لذلك فهي لا تعول ، كمدن الحضارة ، على نظام الدولة في تشريع الحقوق ، ولا على سنة الثأر والغلبة ،

كما هي الحال في بداوة الصحراء وانما هي وسط بين الطرفين ، وفي حاجة الى تقرير الحقوق ، لتستقيم المعاملات المتشابكة ، ويطمئن الطارقون ذهابا وايابا ، ويرتدع المتعطشون الى المال والمتعة العارضة ، ويوضع حد لأولئك الذين يبغون الغلبة عن طريق المكر والخداع • ولهذا كانت مدن القوافل تتطلع الى مصدر للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية ، وغير مصدر النقمة والثأر ، ألا وهو مصدر الهداية النبوية التي ستجد لها دعامة قوية من حماسة النفوس في البادية ، وشعورها بقيمة العهد ورباط الأمانة •

وهناك ظاهرة أخرى تستلفت النظر ، وهي كثرة الأنبياء بين بني اسرائيل حتى وجد منهم في العصر الواحد نحو أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول • ويرى العقاد أن هؤلاء الأنبياء الكثر يختلفون كثيرا عن كبار الأنبياء مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في أن هؤلاء الأنبياء الكبار أقدموا على أمور صعبة وشاقة ، وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، من مثل تحطيم آلهة ، وتسفيه أحلام ، وتغيير عقائد • فضلا عن أن الفترة بين نبي وآخر كانت تطول حتى تبلغ مئات السنين مما يدل على أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في عمر الانسان مرتين • في حين أن أحوال النبوءة في بني اسرائيل تخالف الصورة التي يقدمها الينا كبار الأنبياء من حيث الدعوة التي يقومون بها ، والصدام الذي يتعرضون له ، والفترة التي تفصل بين نبي وآخر • وخير ما يحدد مهمة الأنبياء بين بني اسرائيل ، ويعين مكانهم بين عامة الشعب وخاصته قول النبي (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » ، مما يدل على أن عمل النبي في شعب اسرائيل لا يتجاوز عمل العالم الفقيه في الأمة الاسلامية ، بل ينحصر في تأييد العقائد والمبادىء التي جاء بها الأنبياء الكبار السابقون ابراهيم وموسى ويعقوب ، والتنديد بكل من يخالف السنن التي رسموها ودعوا اليها • فما كان النبي من هؤلاء صاحب رسالة تدعو الى انقلاب جذري في حياة الناس وعقائدهم ، وانما هو حارس شريعة ورسول اصلاح •

وتصدى العقاد في كتابه لمبحث عويص ، وقضية هامة هي قضية الشك في وجود السيد المسيح • فقد ظهرت في القرن الثامن

عشر مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، وذهب كتاب هذه المدرسة الى الشك في وجود الأنبياء والمرسلين فشكوا في بوذا وابراهيم وموسى وعيسى ، وسرى شكهم الى الأدب فشكوا في شخصية هوميروس ، وفي شخصية شكسبير ، ومن لم يتناولوا شخصيته بالشك قصروا شكهم فيه على ما نسب اليه وما نشر باسمه • وطغت نزعة الشك هذه على كثير من كتاب القرن التاسع عشر وظهر فيه كثير من الكتب التي فند فيها أصحابها أقوال المؤرخين ورجحوا أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال • وشمل شكهم ما ذكره يوسفوس المؤرخ اليهودي في تاريخه عن « عيسى القديس » زاعمين أن هذه العبارة أضافها أحد القراء المتأخرين ليسد بها النقص الذي شعر به من عدم الاتيان على ذكر المسيح •

وهنا تبدو مزية العقاد الكبرى في البحث والاستقصاء والتصويب ، فيورد جميع ما رد به المؤرخون وعلماء اللاهوت على أولئك المشككين مدعوما بالحجج الساطعة والبراهين الجازمة التي تنفي كل شك وتكشف الغشاوة عن وجه اليقين • وأبدى عجبه واستغرابه لأمر المنكرين لوجود المسيح الذين لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا معقولا لكثرة عدد المسيحيين وانتشارهم في مختلف بقاع الأرض بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، وهل يعقل أن يكثر كثرة هائلة ، وفي مدة قصيرة ، الأتباع والمؤمنون برجل موهوم لا مكان له الا في مسارح الخيال ؟

ان أصدق الدلالات ، عند العقاد ، على ثبوت شخصية السيد المسيح ، هي أن دعوته جاءت في الزمان والمكان اللذين كانا أحوج ما يكونان فيه الى من يعيد الحق الى نصابه ، ويرد الضالين عن التمادي في الانحدار الى متاهات الضلال •

ويقف العقاد في فصل « آداب حياة » عند الأقوال التي جاءت على لسان السيد المسيح في مجال التوصية والوعظ فلا يرى فيها ما ينكر أو يستغرب اذ الغرض الذي يرمي اليه المسيح منها تطهير النفس وتنزيهها أولا حتى يبلغ التطهير أعمق أعماقها ، واجتثاث ما تنطوي عليه من جذور الشر وبذور الفساد ثانيا • وذلك مثل قوله : « من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء » و « لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب

معه ميلين » و « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، واغفروا لمن يسيء اليكم » •

ولا شك أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف ، فاذا حث الناظر الى امرأة نظرة اشتهاء على فقء عينيه فانما يعني ما تعنيه نحن عندما نهدد الثرثار بقطع لسانه اذا لم يعمد الى السكوت • هذا الى أن هذه الوصايا كانت موجهة الى تلاميذ المسيح ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، وكل دعوة تحتاج من دعاتها الى مثل التضحيات التي انطوت عليها تلك الوصايا • أما غير التلاميذ والرسل من أبناء الدنيا الذين يعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم فيكفي أن يعملوا بروح هذه الوصايا ، ويبالغوا في تهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم وضمائرهم ، وأن ينكروا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكره السيد المسيح •

ومما تناوله المؤلف بالتعليل تسمية المسيح بالمعلم ، ومناداته بهذا اللقب سواء من قبل تلاميذه أو خصومه ، أو من ليسوا تلاميذ له ولا خصوم • وقد حملهم على تلقيبه بهذا اللقب ما لمسوه في كلامه من علم واسع بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها وتوضيح مراميها • وقد أشارت الأناجيل الى أنه كان يرتل المزامير ويحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال وما أثر عن موسى • ويرجح بعض المؤرخين معرفته باللغة اليونانية التي كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل • الا أن معرفته بها كانت معرفة مخاطبة ولم تكن معرفة دراسة • ومن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي كانت تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وأنه كان يعرف الآرامية ويتقنها اتقان البلغاء فيها • والى جانب هذه الثقافة الدينية واللغوية الواسعة كانت تتوفر فيه قدرة فائقة على كسب النفوس واجتذاب الأسماع وافحام ذوي المكابرة والعناد ، ناهيك بضرب الأمثال بأسلوب أخاذ ترتاح اليه الخاصة وتأسر ألباب العامة • كل هذا تتوجه شخصيته المهيبة ووقاره الرزين ، فاجتمعت فيه كل مزايا المعلم الروحي ، والهادي المرشد الأمين •

أما لقب « المسيح » ومعناه الممسوح بمثل الدهن وبالبركة لمن ينصب كاهنا أو نبيا أو ملكا فقد لقب به عيسى عليه السلام لأنه جاء في العصر الذي كان يأمل فيه الناس ظهور مسيح أي رسول الهي هاد يقضي على سلطان الغالبين ، ويهدي الخراف

الضالة • وقد اشتد هذا الأمل على أثر دخول فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد • وكان المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا مخلصا هاديا ، الا أنهم كانوا لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام •

وأما تسميته بابن الله فقد سبقها ورود الأبوة الالهية في مواضع متعددة ، منها ما جاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله ، ومنها ما ورد في كلام موسى عند مخاطبته فرعون أن بني اسرائيل جميعا أبناء الله • وجاء في سفر التثنية : « أنتم أبناء الله » • ووردت كذلك مرارا في المزامير حيث قيل : « قدموا للرب يا أبناء الله » •

وفي العهد الجديد وردت مخاطبة الله فيه باسم الأب في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله : « أبانا الذي في السماوات » ، وفي قول المسيح للتلاميذ : « ان أباكم واحد هو الذي في السماوات » وعند حديثه عن ولادة الروح وولادة الجسد قال : « وكل ولادة للروح فهي بنوة الله » •

ولا شك أن القارىء الكريم سوف يلاحظ أن العقاد ــ رحمه الله ــ لم يشأ أن يتناول في أبحاثه مسألة الخلافات الدينية والعقائدية المتعلقة بشخصية المسيح عليه السلام دفعا للجدل الذي يثير النفوس ولا يستقر بها على صعيد الاقتناع والتسليم • وقد دل بهذا على شغفه بالتجرد والنزاهة والسعي الحثيث وراء الحقائق الكبرى التي تجمع بين الأطراف وتطمئن اليها نفوسهم •

والى هنا نكتفي بما تقدم من بعض التحليل والتعليل والتصويب ، ولا يمنعنا هذا من التنويه بما اشتمل عليه الكتاب من أبحاث ومعلومات هي من الدقة والشمول بحيث قد تغني عن طلب المزيد من أي مصدر أو مرجع قديم أو حديث •

وختاما ، لا نجد خيرا من انهاء هذا التقديم بما ختم به المؤلف كتابه من افتراض عودة المسيح عليه السلام الى عالمنا المعاصر وما يمكن أن يجري على لسانه أو يجول في ذهنه من آراء وملاحظات تتفق مع ما نادى به ودعا اليه في رسالته الالهية والروحية القويمة • وأقرب شيء أن يكون لو عاد السيد المسيح الى الأرض هو انكاره للكثير مما يعمل اليوم باسمه ، ونعيه على أتباعه ما كان ينعاه على الكتبة والفريسيين من الرياء والنفاق

والتظاهر بغير ما تخفيه الضمائر وتنطوي عليه القلوب من مكر وخداع · ولا بد أنه سوف يؤاخذ الناس بما آخذهم به في أيامه على الأرض ، ويجد انسان اليوم كانسان الأمس في ميلـه الى الشر والعداوة ، وفي ايثار القشور على اللباب ، واتخاذ التقوى سلما الى التعالي · وهو بهذا أشبه بالخمر الجديدة فـي الزق القديم !

وهنا قد يرد على خاطر المفكر المتربص أن يسأل : مـا دام الشر باقيا لا يزول ، وأن الانسان الحديث هو هو الانسان القديم من حيث سجايا الشر وغرائز الضلال ، ففيم يشقى المصلحون ، ويهلك الشهداء ، ويأتي الأنبياء نبيـا بعـد نبي ، ويجاهـد المجاهدون في سبيل حمل الرسالات والتبشير بها ؟

ويجيب العقاد المؤمن برسالة الخير في هذه الدنيا ان هؤلاء المصلحين ، والشهداء ، والأنبياء ، والمجاهدين الذين يتوافدون على الدنيا جيلا بعد جيل هم أشبه بالأطفال الذين يتحملون عناء التعليم منذ نعومة أظفارهم ، ويظلون مدى الحياة ساعين وراء المعرفة ينشدونها أينما وجدوها ، ومع ذلك يستمرون متعطشين الى المزيد منها شاعرين بجهل الكثير الكثير ، والدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيهـا لصنيع الهداة ، وجهاد الضمير !

صيدا ـ منيف لطفي

مقـــدمة

من رغباتي التي كنت أرددها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها ـ أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت في رسالات أكبر دعاتها في العالم الانساني : ابراهيم الخليل وأبنائه الكليم ، والمسيح ، ومحمد عليهم السلام

هذه الظاهرة الالهية ـ دعوة النبوة ـ ظاهرة فريدة في العالم الانساني لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية ، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات في هذه الأمم

وسببها من جانبهـا التاريخي فيما ظهر لنا من المقـارنة الطويلة بين الديانات ، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل ، لأنها بيئـة وسطى بين الحضارة والبداوة ، وكذلك كانت أور ، وبعلبك ، وبيت المقدس ، ومكة ، ويثرب ، ومدين ، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز ، وهي بيئات لا الى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة ، ولا الى بداوة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة . ولكنها ـ مدن القوافل ـ وسط بين الجانبين ، محتاجتها الى تقرير الحقوق في كل لحظة ، لدوام المعاملات واشتباكها ، ولكثرة الطارقين ذهابا وايابا ، ممن يجدون المال ، ويبحثون عن المتعة العارضة ، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء ، وحلبة[1] الخداع والادعاء

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدرا للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية ، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادي والمعتدى عليه ، وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى ، تهيأت لها حماسة

---

(١) حلبة : الحلبة بالفتح : الدفعة من الخيل في الرهان خاصة .

النفوس فى البادية ، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة فى كل علاقة واسعة ، كالعلاقة التى ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة

ومما وقفت اليه ، مغتبطا بهذا التوفيق ، اننى اهتديت الى حكمة هذه الظاهرة فى سير الخليل ابراهيم ، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام ، وكل هذه السير ظهر فى حينه فظهر من استقبال العالم له ، أنه لم يكن رغبة من رغباتى القوية وحسب ، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية فى مختلف الآراء والنحل ، لا نحسبها برزت فى استقبال هـذه الكتب الثلاثة ، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن ، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية ، التى تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية ، أملا فى الوقوف على جديد يضاف الى تاريخ الداعى أو تاريخ الدعوة ، أو توقعا لتوكيد شيء من القديم يحتاج الى توكيد أو الى تعقيب

الفصل الأول :

كشوف وادى القمران وتفسيرات من فلسفة التاريخ

- فى وادى القمران
- تفسيرات من فلسفة التاريخ
- رد وتعقيب

فى وادى القمران

تهال فى بعض التعبيرات المجازية ان حادثا من الحوادث وقع فى طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة . فاذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير ، قلنا ان السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها فى أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح .. فان اللفائف المطلوبة التىكشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧ ، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود ، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية ، وأمامى الساعة ثبت موجز مضموم الى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة ، ليس فيه من شىء غير أسماء الكتب والرسائل التى ظهرت فى موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧ ... وهذا عدا الكتب والرسائل التى ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع ، ممن لم يقصدوا الى التعقيب على تلك الكشوف ، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح

واتفق أن اللفائف كشفت ، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها ، فى مطلع سنة ١٩٤٧ ، لأنها كشفت بوادى القمران من شرق الأردن ، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين ، فحالت دون البحث الهادىء والتنقيب المأمون فى ذلك الجوار ، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة على شىء من التفصيل أو البيان المفهوم ، الا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراستها حوالى السنة التى ألفت فيها كتابى عن « عبقرية المسيح » وهى سنة ١٩٥٢

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف فى وادى القمران ، توقفت عن اعادة طبع

الكتاب قبل أن تتهيأ لى فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دفائن التاريخ المجهول ، وفيها ، كما قيل يومئذ ، كتاب كامل من العهد القديم ، وتعليقات على كتب أخرى ، ودفتر واف بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك ، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى فى الشعائر والعبادات

***

ولم يكن هذا التوقف عن البت فى الموضوع المرتهن[١] بنتيجة الاطلاع على لفائف وادى القمران ليثنينى لزاما عن متابعة البحث فى أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل ابراهيم وعهد موسى الكليم .. فان البحث فى هذه الأسرار على عهد الخليل ، يبتدىء بنا من البداءة الأولى ، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التى تقدمت قبل جميع الينابيع ، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهودا من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات ، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضا فانه قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادى القمران ، اذ كان منها ، كما قيل ، لفائف تتضمن كتبا من التوراة ، وقطعا من الكتب الخمسه المشهورة باسم الكتب الموسوية ، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملا يساور العلماء الحفريين واللاهوتيين ، ففضلت من أجل هذا أن أرجىء الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئا بالكتابة عن الخليل ابراهيم ، وسميت كتابى عنه « بأبى الأنبياء » وانتهيت فعلا من البحث فى تفاصيله الى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقى الرسالة النبوية ، اذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى فى زمانه ، وكان انتقاله من « اور » الى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز ، سلسلة من الشواهد البارزة ، تلفت النظر الى هذه الحقيقة ، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء

أما الموضوع الذى توقفت عن المضى فيه ريثما تستقصينى موارده

---

(١) المرتهن : ارتهن بالامر : تقيد به .

الجديدة فقد كان يتوقف حوالى سنة ١٩٥٣ على مصادر ثلاثة : أهمهـا لفائف وادى القمران ، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة فى اللغات الغربية ، ومنها سيل لم يكن ينقطع فى تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية

***

وقد كنا نقرأ فى الصحف والنشرات أن لفائف وادى القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب اشعيا ، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التى حققتها الحوادث التالية ، وشذرات من تفسير كتاب ميخا ، وقصة تسمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبنـاء الظلام ، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة ، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة ، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم ، ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمنا بصومعة وادى القمران ، وكلها مودعة فى جرار كبيرة يوجد الكثير منها فى بعض الكهوف المجاورة ، ويبدو من أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل ، لا تقدر عند العلماء الحفريين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الاجمال

ولو أن أحدا أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التى تناولت مسائل البحث فى تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس ، لما استوعبها جميعا ، ولو كرّس لها كل وقته .. وحسب القارىء العربى أن يعلم انها بحثت من كل ناحية تشترك فى موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية ، ولم تخل منها لغة من لغات الحضارة الغربية .. فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة ، واختلاط اللهجات واللغـات ، ومواد الورق والجـلد والمداد واللصق والتجفيف ، كما تناولت أسماء الاعلام وما اليها من الالقاب والصفات وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل ، ومواقع الأرض وعوارض

الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات ، فى كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة ، وعلى حسب المصطلحات التى تلازمها ولا تعهد فى غيرها .. واتسع نطاق البحث الى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء ، وصناعة الآنية الفخـارية ، وعادات الأكل والشراب ، وأزياء الكساء ، ومواد الأطعمة ، وثمرات النبات ، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد ، ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الامعان ـالتدقيق على قرار وثيق

***

ومن البديهى اننا لم نستوعب هـذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض ، وعلى كل ما فى هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول ، ومواضع التشكيك والترجيح ، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كى نخلص منه الى القول الجديد فى تاريخ السيد المسيح ، ولكننا عمدنا الى نخبة من كتب الثقات التى ألمت برءوس المسـائل ، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة فى كل مسألة منها ، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا ، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد فى الأمر لايزال من عمـل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة فى عالم الروح ، وان كل مشابهة بينه عليه السلام ، وبين مذاهب الدين قبل عصره ، تنتهى عند الظواهر والأشكال ، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت اليه عقائد الدين على يديه

ولعل أرجح الأقوال التى خلصت اليها أكثر البحوث والمناقشات ، أن نساك صومعة القمران كانوا زمرة من « الاسينيين » احدى الطوائف المتشددة فى رعايتها للاحكام الدينية ، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود ، وهذه هى الطائفة التى ذكرناها فى « عبقرية المسيح » ، فقلنا عنها ما فحواه انها أقرب الطوائف الاسرائيلية الى التطهر من أدران المطامع والشـهوات ، وانهم « كانوا ينتظمـون فى النحـلة على ثلاث درجات ... وان أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر

الجماعة ، ويحرّم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة ، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ... والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ... وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ... وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون ان الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح » .

ثم قلنا عنهم فى سياق الكلام على زمرة المتنطسين[1] بمصر Therepeuts ان هؤلاء المتنطسين ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الاسينيين على قول بعض المؤرخين ، لأننا رجحنا ان الاسم مأخوذ من كلمة الآسى بمعنى الطبيب ، وهى تقابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين ..

***

فاذا صح ان زمرة وادى القمران كانت تنتمى الى الآسين ، وصح أكثر من ذلك ان صومعتهم كانت هى البرية التى كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان ــ فالجديد فى هذا الكشف هو توكيد الحاجة الى رسالة السيد المسيح ، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية فى اصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقاها وأنقاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد ..

فالكتب الاسينية ــ أو الآسية ــ التى وجدت فى الصومعة تصف لنا نظام الجماعة وآداب سلوكها وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها ، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذى انتهى الى غاية مداه فى تلك الفترة ، وهو داء الجمود على النصوص والحروف ، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الايمان ، ولا تزال النحلة الاسينية نفسها أدل على الحاجة الى الاصلاح من النحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات ، لأن النحلة المتهمة تجد اصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة ، وكل نحلة يهودية زائغة عن سوائها تجد مَن يقوّمها من العارفين باستقامتها فى نطاق الديانة اليهودية ، ولكن الحاجة الى الاصلاح انما تثبت كل الثبوت اذا

(١) المتنطسين : تنطس الرجل : تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه . وفى الامور : استقصاها وأمعن النظر فيها ، والاخبار : تجسسها .

بلغت النحلة أرقى ما تبلغه ، واستنفدت كل طاقتها تهذيبا وتطهيرا واخلاصا وتذكيرا ، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطش له وتفتقر اليه . وكذلك كانت النحلة الأسينية التى كشفت عنها لفائف وادى القمران ، أيا كان اسمها ، وأية كان وجهتها ، فانها لم تمهد لرسالة السيد المسيح الا كما يمهد المريض للعلاج أو يمهد الداء للدواء ، ولاشك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة فى بابها ، ولكنها لا تضيف الى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية ، ولا تخرجنا بشىء جديد فى أمر هذه الرسالة ، غير انها تؤكد لنا فضلها ولزومها فى أوانها ، فمهما يكن من غرض النحلة الاسينية ، فهى فى أصولها وفروعها بقية محافظة على تراثها متشددة فى محافظتها ، ناظرة الى أمسها حتى فى التطلع الى الغد المرجو انتظارا للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة ، ولهذه الآفة الوبيلة — آفة التشدد فى عبادة المراسم والنصوص — كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم فى حاجة الى أن يتعلموه كلما غرقوا فى لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة ، تعلمهم ان العقيدة مسألة فكرة وضمير ، لا مسألة حروف وأشكال ... وهذه هى رسالة السيد المسيح فى ذلك العصر الموبوء بجموده وريائه على السواء ، لأن الرياء انما هو فى باطنه جمود على وجهه طلاء

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة الى تلخيص نتيجة المناقشة ـ أو المناقشات الطويلة ـ حول الترجمة المنقحة فى اللغة الانجليزية لكتابى العهد القديم والعهد الجديد

اننا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة ، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة فى كتاب اشعيا فى العهد القديم ، فاعتقدنا ان المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا الى نص جديد فى لفائف وادى القمران لأن كتاب اشعيا هو الكتاب الكامل الذى اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة ، ولكننا تلقينا البيان الوافى عن عمل المنقحين ، فلم نجد فيه ما يشير الى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص ، لأن الفقرة التى جاءت فى كتاب اشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه لم تفاجىء علماء اللاهوت برأى لم يعلموه من قبل ، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين ..

ثارت الضجة حول فقرة فى الاصحاح السابع مترجمة فى اللغة العربية بالكلمات الآتية : « ... يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحمل وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانويل »

فهذه الفقرة تظهر فى الترجمة الانجليزية المنقحة بعبارة « امرأة شابة » فى مقابلة كلمة « علامة » العبرية ، وكلمة Parenthos « بارانثوس » فى الترجمة السبعينية ، ولا جديد أيضا فى هذا الخلاف لأنه خلاف بين المذاهب الثلاثة التى يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة[١] السيدة مريم أم المسيح

---

(١) بتولة : البتولة : الانقطاع الى الله عن الدنيا ، وترك الزواج والزهد فيه .

عليه السلام . فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد المسيح وبعده ، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده .. ثم ولادة اخوة له بعد ذلك وردت الاشارة اليهم فى كتب العهد الجديد ، ومنهم من يرجع الى النصوص العبرية ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم ... وجواب القائلين بالبتولة الدائمة على المستشهدين بذكر اخوة السيد المسيح فى كتب العهد الجديد انهم أبناء عمومة أو انهم اخوة منسوبون الى يوسف خطيب السيدة مريم ، الى آخر ما ورد فى هذا الخلاف القديم الجديد

ولقد كانت أمامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة « عبقرية المسيح » فلم نعرض له ، ولم نعرض لبحث من البحوث فى هذا الصدد ، الا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح فى عالم الهداية الروحية . ولهذا لم نذكر معنى كلمة « أخى الرب » التى شفعت باسم « جيمس » المقابل لاسم يعقوب فى الترجمة العربية ، وقلنا عنه انه « جيمس قريب السيد المسيح »

وقد خطر لبعض الناقدين اننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد ، وانه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية ، ويحسبه بعيدا كبعد المستحيل من يعلم من قراءة «عبقرية المسيح» اننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة ، لنبحث فيها عما بحثناه ، وننقل منها ما نقلناه ... فالآن تعرض المناسبة التى نذكر فيها سبب تلك الاشارة على علاتها ، دون أن نبدى رأيا فى تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب ، ودون أن نقرر فى الاشارة العابرة حكما فاصلا لا موضع له بين هذه التفصيلات

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة ، وضجة اللفائف المستخرجة من وادى القمران ، مع تكرار الكلام عن كتاب اشعيا فى كلتا الضجتين ــ هو الذى أوحى الينا أن ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى الينا أن ننتظر من وراء ضجة اللفائف المكشوفة . فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوجب اعادة النظر فى كتابة « عبقرية المسيح »

... ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجبا للانتظار الى ما بعد فراغ القول منه . إذ كانت أوجه الخلاف جميعا فى هذه المسألة معروفة من زمن قديم ، وكانت من المسائل التى كان فى وسعنا أن نتتبعها فى مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح

***

الا اننا نسأل الآن بعد خمس سنوات : هل كان مما يريح الضمير أن نمضى فى اصدار الكتاب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التى كانت تتعاقب فى اللغات الغربية كتابا بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته ، ونظرات المحدثين الى هذه الرسالة فى زمانها وفيما أعقبه من الأزمنة ؟ ..

اننا تمهلنا قبل خمس سنوات فى اصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود الى أسباب توجب المراجعة واعادة النظر ، ولكننا نسأل اليوم : ترى لو اننا علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة ، وعلمنا انها موضوع معاد فى قضية معروفة ــ هل كنا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التى كتبها أصحابها فى موضوع كموضوعنا ، ومن وجهة نظر تعنينا ، أيا كان شأنها من الموافقــة ، أو المخالفة لوجهة نظرنا ؟

نحسب ان اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كان ســببا كافيا لتعليق النظر كى نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين الى عاقبة هذه الاناة .. فان غيَّر الاطلاع على الكتب الجديدة آراءنا فى موضع من مواضع الكتاب فتلك فائدة جديرة بالانتظار ، وان اطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك طمأنينة نحمدها ، وما ضيعنا شيئا بهذه الاناة

***

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة ، ان الاطلاع عليها كان متعة من متع القراءة ، ترضينا قارئين قبل أن ترضينا مؤلفين ، وقد كان فيها السمين والغث ، والمتفوق والمتخلف ، كما يكون فى كل تأليف ، ولكننا

خلقاء أن نحمد حظنا مما استوفينا منها ، لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات التى تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الالمام بسطور هنا وسطور هناك . وأما السمين منها فقد كان كافيا فى موضوعه ، كما كان مكافئا لما ينفقه القارىء من الوقت والجهد فيه

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة فى بابين واسعين : باب التأمل وما اليه من النظر الفلسفى والخواطر الوجدانية وباب النقد التاريخى والتحليل العلمى على قواعد المقابلة بين الأديان

ويلذ القارىء ولا ريب أن يعلم رأى الفيلسوف العصرى فى المقابلة بين تعاليم السيد المسيح وتعاليم نيتشه فى العصر الحاضر ، أو يعلم رأيه فى المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين ، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح فى الاصلاح الانسانى وخطط الساسة ودعاة الاجتماع فى القرون الحديثة ، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة ... فهذه وأشباهها هى مدار القول فى كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحيانا أن تدل عناوينها على أغراضها ، ولكننا لا نعتقد انها مما يقتضينا البحث فى كتابنا هذا ان نبسطها أو نطويها موجزين ... وقصارى ما نقوله عنها انها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد فى لوحات كثيرة ، ليست محل تلخيص ولكنها محل استزادة لمن شاء ..

أما الكتب التى نسلكها فى باب النقد التاريخى والتحليل العلمى ففيها حقا ما يهتم به الباحث فى تاريخ الرسالة المسيحية وفيها — ولا مراء — بحوث جديرة بطول التأمل وانعام النظر ومواجهة الموضوع كله فى نطاقه الواسع من جميع جهاته ، وليس فى استطاعة أحد أن يواجه هدا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بكل عدته من المراجع والأسانيد

ومن الاطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين فى هذه البحوث النقدية ، فاننا — بعد ما وقفنا عليه منها — نرى ان القارىء

لا يفوته شيء من جوهرها اذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جملة المناقضات والأقاويل التى تتعرض للقبول أو الرفض فى هذه البحوث ، ونعنى بها كتاب (١) « الجانب الآخر من القصة » تأليف روبرت فيرنو ، وكتاب (٢) « انجيل الناصرى يعاد » تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو ، وكلا الكتابين مؤلف باللغة الانجليزية

***

وندع التخمينات الملفقة التى تتخلل الكتابين ، وينبغى أن نذكر — بداءة — انها تخمينات كثيرة وانها فى بعض الأحايين تخمينات معتسفة[٣] يعترف المؤلفون باضطرارهم اليها لاتمام الحلقات المفقودة فى السلسلة التى سبكوها من بقايا الأسانيد المتخلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع خيالهم فى مواضع النقص المعترضة فى فجوات تلك الأسانيد ، ولا ننسى أن أحد المؤلفين — روبرت جريفس — قصاص يعتمد على التصور الفنى فى التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات ، وله قصة فى الموضوع نفسه سماها « عيسى الملك » يشرح فيها بالاسلوب الروائى نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح ، وزبدتها ان السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانت تعمل لتعجيل الخلاص على يد الملك « المسيح » الذى يأتى من ذرية داود لانقاذ شعب الله المختار ، وان يوحنا المعمدان هو الذى وكل اليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة فى النبوءات ، فاختاره وعاهده وبايعه « ملكا » مسيحا أى ممسوحا بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين ، وان زعماء الهيكل لم يكونوا جميعا من المطلعين على سر هذه المبايعة التى جمعت بين يمين الايمان ويمين الطاعة ، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل فى وقت واحد ، ثم جرت الحوادث مجراها الذى نعلمه من الأناجيل مزيدا عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر

(١) The Otherside of the story by Rubert Furneaux

(٢) The Nagarene Gospel Restored by Graves and podra

(٣) معسفة : اعتسف الطريق : عدل عنه . والامر : ركبه بلا روية .

والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف من أسانيده ومن وحى خيـاله أو تنسيق فنه وتقدير ظنه ، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل ..

ونحن ندع هذه التخمينات ونجتهد فى حذفهـا كما اجتهـد المؤلف الروائى فى اضافتها ، ولكننا لا نريد أن نحذفها حيث تترك الفراغ بعدها ادعى الى الحيرة والتردد من الاثبات

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات ان الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع الى مركزين : أحدهما برئاسـة جيمس أى (يعقوب) المسمى بأخى الرب ومقره بيت القدس ، والثانية برئاسـة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيدا عن سلطان هيكل اليهود . وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب الى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة فى العالم المسيحى داخـل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية ، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين فى الخارج عليها ، وكلها وصـايا تحث على رعاية الشعـائر الاسرائيلية كما تقدمت فى النبوءات

وظلت الرئاسة على العالم المسيحى معقودة لهذه الشعبة المقيمة فى بيت المقدس حتى تهدم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبـددت الجماعة فى أطراف البلاد ، وآلت قيادة الدعوة الى الشعبة التى كانت تعمل فى خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير فى أسلوب الدعوة وفى اختيار وسائل الاقناع ، اذا اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه الى اليهود وحدهم ، والخطاب الموجّه الى الأمميين النافرين من اليهود .. فبينما كان الخلاص على يد فرد من بنى اسرائيل لانقاذهم دون غيرهم أمرا مفروغا منه بين اليهود ، كان العالم الخارجى بحاجة الى صـفات الهية فى الرسول المخلص يقبلها الأمميون ، ولا يتقيـدون فى قبـولها بالشروط والعلامات التى يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس ، وقد كانت كتابة الأناجيل فى وقت يوافق هدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت

المقدس ، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها فى بلاد الأمميين ، وغلبت فنها الصفة الالهية على غيرها من الصفات المسموعة فى جدار الهيكل ، قبل الحـاح الحـاجة الى تدوين الأناجيل وان المؤلفين ليطنبون اطنابا كبيرا فى ترديد الكلمات الانجيلية التى تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة ، وتوصـية التلاميذ باتبـاعها على سنة الفريسيين ، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى : « انه على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه ، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا ، لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء فى الاصحاح الخامس : « لا تظنوا انتى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فانى الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ... »

ومنها قوله كما جاء فى الأصحاح العاشر : « الى طريق أمم لا تمضوا ، والى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة »

ومنها قوله كما جاء فى الاصحاح الخامس عشر : « لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ... » الى أقوال أخرى تفهم من مضامينها ان لم تفهم من لفظها الصريح كما فى هذه الأقوال ..

ردّ وتعقيب

وعندنا ان المؤلفين أصحاب هذه النظرية فى غنى عن العناء والعنت فى تأويل الكلمات أو التنقيب عن الصحائف المطوية اذا كان قصاراهم[1] ان يثبتوا ان الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب الى الأمة التى تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها ، وانهم كذلك فى غنى عن العناء والعنت اذا أرادوا أن يثبتوا ان القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوبا فى الدعوة غير الذى يتفاهم عليه بنو اسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النبوءات ، وان رسل الدعوة المسيحية الى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح فى كلامه الذى نقلته عنه الأناجيل

كل أولئك لا حاجة به الى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية ، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكلفون براهينهم عنتا شديدا اذا حاولوا أن ينكروا ان دعوة الأمم قد بدأت فى عهد السيد المسيح ، وان التلاميذ والرسل تعلموا منه أن يشملوا الأمم بدعوته ولا يقصروها آخر الأمر على بنى اسرائيل . فلم تتواتر أخبار الأناجيل على شىء كما تواترت على هذه الأخبار فى مواضعها وفى مناسباتها المعقولة ، ولم تأت الأناجيل فى هذه الأخبار الا بالنتيجة الطبيعية التى يعززها سياق الحوادث ويستاهم منها منطق الأشياء كما نقول فى مصطلحاتنا الحديثة . وماذا كان السيد المسيح صانعا بعد رفض القوم دعوته واصرارهم على رفضها الا أن يتجه برسالته الى غيرهم ، أو أن يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها

---

(١) قصاراهم : القصارى : الجهد والغاية . يقال : قصاراك أن تفعل كذا .

بتاتا ، فيعدل عنها التلاميذ والرسل ، ولا يتجهوا بها الى الأمم ولا الى اسرائيل ؟ ..

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هـذه النظرية ان الرسل الذين بشروا الأمم بالمسيحية هم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب فى سبيلها ، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفرق دعاة المسيحية فى بيت المقدس ، ومن يفعل ذلك لابد أن يكون معتقدا لما يدعو اليه ولا يكون مبلغه من العقيدة انه يحتال لاجتذاب السامعين اليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بنى اسرائيل ... فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس الى تصديقها وقد اطمأنوا اليها قبل أن يروضوا الناس على ابتغاء الطمأنينة فيها

***

وبعـد : فنحن لا نستغرب الضجة التى أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية أو على طريقتهم فى تكملة التـاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحى القريحة أو من وحى الخيال .. الا اننا نعود الى أنفسنا فلا نرى ان هؤلاء المؤلفين قد أطلعونا على رأى طارىء يدعونا الى تعديل شىء جوهرى فى الصورة التى أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنـا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هـذا الكتاب ، ويسرنا اننا نعيده اليوم فى طبعته الثانية كما بدأناه فى طبعته الأولى بغير تعديل يذكر الا ما كان من قبيل المطبعيات والتصحيفات ... ويسرنا قبل ذلك اننا لقينا من قرائنا عرفانا مشكورا نغتبط به ، ويغتبط به كل من مارس التأليف فى هذا الموضوع الجليل على التخصيص ، ولا نعلم ان منهجنا فى الكتابة عن « السيـد المسيح » قد لقى من أحد استنكارا يحسبه الكاتب أو القارىء فى حساب النقد المفهوم ، وكل ما هنالك ان بعضهم ظن ان التأليف عن السيد المسيح يقتضى منا أن ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها فى وقت واحد ، ولم يقل أحد اننا اذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين ، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل

فيها من دين الى دين ، ولو وجب ذلك على باحث لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة اليها ممن يتفقون فى الملة الواحـدة أو لا يتفقون ... بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق الا المشارقة ، ولا كتب عن أوربة الا الأوربيون ، ولا كتب عن الماضى الا من كان فيه ، ولا عن المستقبل الا مولود من بنيـه ، ولا وجوب لشرط من هـذه الشروط المفروضة فى حكم من أحكام النقد المفهوم

وانصافا لكثرة القراء الغالبة ، نقول انهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة الى جانبها بحساب النسبة الى الألف ، لأنها أندر من أن تحسب بحساب النسبة الى المائة ، وانما تصادفها على نسبة متفاوتة فى شعب شتى من المطالعات التاريخية الدينية ، فربما كتبنا عن الخلفاء الراشدين كلاما لم يعجب أفرادا من الشيعة ، أو كتبنا عن معاوية بن أبى سفيان كلاما لم يعجب أفرادا من غيرها ، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما فى ضمائرهم وخواطرهم ، وبين أيدى هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونقدم الآن طبعته الثانية بعنوان « حياة المسيح » على بركة الله ..

الفصل الثانى :

المسيح فى التاريخ

- الشجرة المباركة
- المسيح
- النبوة بين بنى اسرائيل
- الطوائف اليهودية فى عصر الميلاد
- الحياة السياسية والاجتماعية
- الحياة الدينية
- الحياة الفكرية

الشجـرة المباركـة

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصبـاح ، المصباح فى زجاجـة ، الزجاجـة كأنها كوكب درى يوقـد من شجرة مبـاركة ، زيتونة لا شرقيـة ولا غربيـة ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشـاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم »

سورة النور

« وهو الذى أنشأ جنـات معروشـات[1] وغير معروشات والنخل والزرع مختلفـا أكله والزيتـون والرمان متشـابها وغير متشـابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الانعام

« هو الذى أنزل من السـماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[2] ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا[3] وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا »[4]

سورة عبس

***

هذه هى الشجرة المباركة فى التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور

---

(١) معروشات : عرش الرجل الكرم : رفع دواليـه على الخشـب .
(٢) تسيمون . أسام الراعي الماشية : أخرجها الى المرعى . (٣) قضبا : هو ما يقطع مرة بعد أخرى من النبات . (٤) حدائق غلبا : بساتين كثيرة الاشجار .

عالية تعلو خمس قامات وتزداد
باقية تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد
كريمة تؤتى من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب[1] وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب[2] وأعواد المنابر ، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الابطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

***

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس أمنية لايرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها الى الضياء ، ورمزوا بها الى السلام ، ورمزوا بها الى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من أقدس الأسماء ، وهو اسم « السيد المسيح »

لأمر ما نبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين الى غايتها من البلاغ المبين

ولو لم تكن « للزيتونة » الا ان هذا الاسم المبارك مردود الى سحتها[3] وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون ..

---

(١) الاهاب : الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ · (٢) المحاريب: المحراب من معانيه : القصر ، والموضع الذي ينفرد فيه الملك فيتباعد عن الناس · والغرفة · وصدر البيت وصدر المجلس وأكرم موضع فيهما · والقبلة · وغيل الاسد وعرينه · والشجاع الشديد الحرب · (٣) سحتها : سيلانها وشدة انصبابها ·

المسيــح

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الايمان بالخــلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية ان القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين ، وليس فى هــذا عجب .. لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصــلاح مادة من مواد الحيــاة الانسانية فى طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور Ipuwer ان المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه » (١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذى يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام وأشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم ابن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له . فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هــذا الرجل للألف عام ... »

أما الايمان بظهور رسول الهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، فى التلمود

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القد . لمؤلفه جاك فينجان

والهجادا وما اليها ..

ومرجع التسمية نفسها الى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء .. فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ما ورد ذلك فى الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب انه « بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت ايل .. أى بيت الله »

***

وجاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا : .... وانت تأخذ أفخر الأطياب ، دهنا مقدسا للمسحة ، وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة ، وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل ما مسها يكون مقدسا ، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم »

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الاصحاح السادس عشر من سفر الأيام : « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى »

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة ، فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء ..

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار ومنذور ، فسمّى كورش الفارسى « مسيحا » كما جاء فى الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا ، لأن الله أخذ بيده لاهلاك أعداء الاسرائيليين واقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمّى الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق ، ومنه « خرجت لخلاص شعبك : خلاص مسيحك » بمعنى الشعب المختار ..

وتكررت فى كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف ، وتارة على

موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور ، لأنهم لايدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام

***

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الاسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك الى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك الى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته فى بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التى امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان[1] ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره فى سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء فى الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » ... وجاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر زكريا انه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » ... واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتى مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبى ايليا (الياس) منبعثا من الأموات

***

وقد كان هذا الارتقاء فى فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الاسرائيلى فى تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء فى المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل فى استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء الى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا ان الأمل فى الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين فى حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل فى قيام الدولة

---

(١) الصولجان : العصا المنعطفة الرأس ومنه صولجان الملك .

يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع فى انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا ، وتفترقان ، بل تتناقضان جملة أحيان .. فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومى كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية ، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد ..

النبوة بين بنى إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة فى الشعب الاسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه . فان أحوال النبوءة فى ذلك الشعب لم تكن على الصورة التى تسبق الى خواطرنا من النظر فى كبار الأنبياء ، وتاريخ الفترات التى مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ، ونعلم عن يقين ان الذى يقدم على ادعاء النبوءة فى عصرنا هـذا يقدم على خارقة مستغربه ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتبـاع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبى الجـديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه انه يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم ، أما المنكرون والملحدون فانهم لا يقبلون دعوة النبوءة فى هذا العصر ولا فى غيره من العصور ..

ونحن اليوم نعلم ان الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين. ففى اعتقادنا على الدوام ان ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر فى كل جيل ولا يراه الانسان فى عمره مرتين

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء انهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا[1] أحلاما وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمـد وكذلك صنع موسى عليهما

---

(١) سفهوا أحلاما : الاحلام : العقول . وتسفيه الاحلام جعلها خفيفـة ونسبة أصحابها الى الجهل والحمق .

السلام ، فمن تولى الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرّض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم الا اعنتوه وأقاموا له العراقيل ..

أما أحوال النبوءة فى بنى اسرائيل فينبغى أن تتصورها على غير هذا النحو ، لأنها تخالفه من جملة وجوه ..

فأول ما هنـالك من الفوارق أن الأنبيـاء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل « الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم : أأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟ .. »

***

وخير ما ورد فى وصف مكان الأنبيـاء بين بنى اسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فقد كان عمل النبى اذن فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة فى وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم ، وموسى ، ويعقوب ، وغيرهم من الأنبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم ان الله وعد اسرائيل « ان يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه فى أفواههم (١٨ تثنيـة) وان بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث الى الناس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » ... « وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب ، فلا تخف منه »

بل يجوز أحيانا أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع الى وصايا الأنبياء اذا دعوه الى عبادة رب غير اله اسرائيل ..

فاذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة ... فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا ان دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ...

« ١٣ تثنيه »

ولم تكن النبوءة باذن من ذوى السلطان أمراء كانوا أو كهانا أوشيوخا مطاعين فى القبيلة . بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا ، وكلمة الرب جللتنى بالعار والسخرية ، فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى ، فلم تكن لى طاقة بالسكوت»

« ٢٠ ارميا »

***

وكثيرا ما كان النبى ينحى[١] على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا : « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الى الأرض كلها ... فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : « من أين عبر روح الرب منى ليكلمك »

وكان المعهود فى الأنبيـاء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبيـاء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت الى جانب النهر العظيم دجله رفعت عينى ونظرت »

---

(١) ينحي على زملائه : أنحى على فلان : تعرض له وتصدى .

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء فى سفر صمويل الأول : « انك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب « ٩ صمويل اول »

أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « فقال اليشع حى رب الجنود ، والآن فأتونى بعواد .. فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »

ولكن الأغلب مع هذا انهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون فى جوانب الأنهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله »
« ١ حزقيال »

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انسانا من غير الأنبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين

***

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما اذن للنبى أن يطلب الآية ويمعن فى طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات « ٧ اشعيا »

على انهم كانوا يلجأون الى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم انهم أقرب الى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين فى هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا ومن كان يحسه الهاما أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن سنة الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبى الا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ، ومن

هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد الى التنكيل بالنبى فى هــذه الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبى الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبيــاء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خــارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وان الانسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياما بعد أيام ، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيــانا لأمر الله ونكولا[1] عن ارادته ، ومتى استقر فى سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف فى الايمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش فيه بروح الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس اليه كما يشاء

***

وفى عصر الميلاد ، ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه ، خوفا من سهولة الدعوى على الأدعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم ..

---

(١) نكولا : نكل الرجل عن اليمين نكص وعن العدو هابه وجبن .

الطوائف اليهودية في عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصر الذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود

والتعريف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى اسرائيل

وضرورى من جهة أخرى لأنه — فيما نرى — أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك فى النصوص والروايات الى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد ، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لابد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعــا ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ، وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية

فالصدوقيون هم فى دعواهم أتباع « صدوق » وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة

والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء ..

وقد كانوا متشددين فى انكار البدع والتفسيرات ، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع

***

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه يومئذ انه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويعلى لهم فى هذه النزعة انهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الأخرى التى تؤمن بالبعث والحساب ..

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما : « حنانيا » و « قيافا » ، ولم يكن فى ذلك عجب ، لأن الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لايستريحون الى الثورة والانقلاب

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرفيون فى مسائل الدين متوسعون فى مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من

الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة « الفرز » العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتحقيرا لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبنى اسرائيل جميعا كما يروونه فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » ، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون ..

***

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء

على انهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمى » حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الأجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون فى الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك«أنطيوخس» كاهن الهيكل أن يضحى فى مذبحة بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها فسأل زعماءهم :

كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه ، فقالوا : نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم اننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لاثبات ما يقولون ..

***

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم الى اقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم .. فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » أشد من المتشددين

الا أن الغالب عليهم حين يتعدون عن الأمور التى تتعرض لهذه النقائض انهم أقرب الى التصرف والقياس ، أو أقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون أقرب الى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح ، غير مقيد بشرط الصولة والصولجان

واذا وصف الصدوقيون على الاجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون ..

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم « هلل » الذى قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الأجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماى » وهو أقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ،

وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المـأثورة : « ان الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » ، وشريعته فى المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهى ألا تصيب أحدا بما تكره أن تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم « شماى » فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ؛ وروى انه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على التجديد والتصرف فى تأويل النصوص ..

والقول الراجح بين المؤرخين ان معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفرّيسيين

***

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويها أو تزيد عليها فى القوة والاثر هى طائفة الآسين أو الأسينيين ــ كما يكتبها رواة الأخبار عنها فى عصر الميلاد

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لايزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة .. وقد تكون دلالتهم اعظم من قوتهم ، لأنهم طائفة من صميم الأمة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن «الهيكل» كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة ان الاسم مأخوذ من كلمة « آسى » بمعنى الطبيب أو النطاسى فى اللغة الارامية ، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات

والأوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورث الذى يحرم ذبح الحيوان ، ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل ..

وكان حراما عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة ..

***

وكانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات : درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم[1] ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة فى الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار ، ثم ينقل المريد الى درجة الواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس فى يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة ، منها الاغتسال ، وتلاوة بعض العهود ، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة ؛ ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث فى يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان ..

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح فى ذلك اليوم ازالة الضرورات ..

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهى فى مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال

---

(١) الحِلم : العقل . وبلغ الصبي الحلم : أدرك وبلغ مبالغ الرجال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ؛ والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوى فى أعلى الأثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت[١]

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان أو فى الأحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ[٢].

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضا من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب أن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلى فرقة منطرفة من فرق الآسين ، لأنهم يسلكون مسلكهم فى التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات فى السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم ان طاعة القيصر من عبادة الأوثان ، وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة اليه وانتزعاه عنوة وأنذر اخوانهما من يعيده الى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الاحصاء بقيادة يهودا الجليلى ومات هو وأبناؤه وذووه فى ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمداراة فى معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة الا اذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة ..

---

(١) القنوت : القيام في الصلاة على الرجلين ، والامساك عن الكلام فيها . (٢) ازجاء الفراغ : دفعه والخلاص منه .

والطائفة السامرية خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبائل اليهودية التى نقبت الى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم . وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التى تعرف بالكتب الموسوية ، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين فى عصر الميلاد حتى بطل الأمان فى السفر بين السامرة والبلاد الأخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال

***

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القديم بين مملكة يهودا فى الجنوب ومملكة اسرائيل

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما ان الله يتجلى فى هذه الخيمة للأنبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل انه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب ، وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المثقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد أن قام فى مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسى باعادة بنائه فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف اليه ، وتم ذلك أو كاد فى عصر الميلاد ..

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويتمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من اعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد

***

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل امامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الأعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم

الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ويقتسمون جميعا فى النذور والمرتبات ..

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى اقامة الصلوات ، ووجد الى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا ــ كما تقدم ــ يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء

***

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أوغير الرسميين» لسؤالهم فى المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص ..

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » وعدد أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة

المحلية أو الشريعة الموسوية

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب فى « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله الى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدد اذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الى سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك » ..

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، الا اشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء

***

واذا نظرنا الى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكد نرى فيها باعثا الى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هى باب الأمل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الأمل فى شيوعها وانتشارها ، وهى اذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء[1] دون غيرهم ، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون ، لأنهم — آخر الزمان — هم الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان

---

(١) الدهماء : جماعه الناس .

الحساب ..

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة الى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة ، ولا ينتسبون الى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها ..

والكلمة باللغة العربية ترجع الى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت الى ما يظهر للجهاد فى سبيل الدين ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعة ، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان

***

ولا يشترط فى النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذورا لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته ، ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى عاموس بلسان يهوا اله بنى اسرائيل : « وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين ... لكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة » والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون ..

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف

الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى ، وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كألف سنة كما جاء فى المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع الهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة . فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinnum ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الألف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ..

***

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح أن النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج

ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة الى المنذورين والنسبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين ..

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون الى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة الى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء اليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود ..

الحياة السياسية والاجتماعية

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور..

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التى أضافت الى مجد بومباى وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الأبطال والدول مجدا لاينطوى على خير كبير .. فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض ..

***

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقى ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه هى الثورة التى تجلى قائدها « أونس » لأتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله فى سورية وكثير من أتباعه شرقيون

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيلها لم

تبلغ مبلغها من العنف ولم تخل أحداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزا الى عبادة النور والحرية ، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان ..

***

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصلحين من ساسة الرومان فى الأجيال القريبة التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Grachus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه الى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون : « ان ملاك الأرض فى مدينة رومه لايزيدون على ألفين » .. وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فآلت المستعمرة الافريقية الى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها آلوف من الأرقاء المسخّرين ..

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى[1] متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه »

والواقع انه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ، وألقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سندا لا غنى عنه ، وانتهت بها

---

(١) الحواري : الناصر والحميم ، وقيل ناصر الانبياء ومن ذلك قيل لرسل المسيح : الحواريون ·

الحـاجة الى تلك القوة انها ألقت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها .. وضيّعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر الى مقام الربوبية المعبـودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب اله ، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهرا فى السنة لايزال معروفا باسمه الى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين

***

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضـاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختـلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحيـاة ، فصدق فى رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبـلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ، وانقسم رأى القوم وشعورهم بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خرج بهم الى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضـلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس ابن اورسطبوتس . فقبض هـذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم

على رأس قبائل الأدوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضـوى[١] اليها واستبسـل فى معونتها ، فكافأته على خدمتـه بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليـل حيث ولد السيـد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن[٢] السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد ، فتغالى[٣] فى الغيرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى فى محاكاة الرومان والاغريق بالأزياء والمساكن والشـارات والأسماء وتكفل باتمام بنـاء الهيكل على نفقته .. ثم تكفّل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه « المترومنين » ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شـططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج الى التوفيق بين النقيضين

***

ومع هـذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة وأمر بأجناده فحملوه الى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء !.. وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات ، قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل ــ حيث ولد السيد المسيح ــ فى حصة هيرود الثانى انتيباس ، ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام فى حصة فيليب ، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك الى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدى القيصر ، فهذا الذى يشير اليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان انسـانا شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ... وأما أهل

---

(١) انضوى اليها : انضم • (٢) يداهن : داهن صاحبه : غشه ومانعه واظهر له غير ما يضمر • (٣) تغالى : بالغ •

مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفراءهم يقولون : « لا نريده ملكا علينا .. »

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشرة وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين

***

ومن المتواتر — مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد — أن السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة(١) اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام .. وليس الاحصاء بطبيعة الحال سببا مباشرا لاشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة ، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين . احداهما ، مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى انه هو الاله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له الا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فاذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان . وقد حسب الشعب الاسرائيلى ان الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه ، ولهذا دبروا مكيدتهم

(١) جائحة : الجائحة : الشدة ، والنازلة العظيمة تجتاح المال . وسنة جائحة : فيها قحط وجدب .

للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز .. فأرسلوا اليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين : « يا معلم : انك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن ؟.. أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟.. » فكان جوابه المشهور : « أرونى معاملة الجزية !.. » ونظر الى الدينار الرومانى فسألهم : « لمن هذه الصورة والكتابة ؟.. » فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : « اعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .. » وأسكتهم جوابه لأنهم لايرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين : أحداهما للهيكل ، والأخرى للدولة ، وقد جاء فى الأناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : « ما تظن يا سمعان ؟.. ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية ؟.. من بينهم أم من الأجانب ؟.. » قال له التلميذ : « بل من الأجانب .. » فقال السيد المسيح : « اذن فان البنين أحرار » ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ

وقد كان أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه ــ مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة ــ كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء ، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة . فاذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة الى الشعب وكان الشعب الاسرائيلى

لا يغتفر لاناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المـال حراما من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السـيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع الى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة فى الجباية ... يسألونه : يا معلم !.. ماذا نفعل ؟.. فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائفكم ، لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !..

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيهـا من الأحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون

ومما لا خلاف عليـه بين المؤرخين الشرقيين والأوربيين أن الحـالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على افراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء ، وحسب القارىء ان يتصفح الأناجيل كائنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى أقاليم فلسطين ، ولاسيما اقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما كتب الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعـد اليـأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف ، وبينهم من يقال عنه ان جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول فى مختلف الأعمـار ، وهـذا الى أمراض البرص

---

(١) ترين : ران عليه الكرى غلبه ٠

والنزيف والصرع الذى لا يقترن بالجنون

واذا كانت هذه هى الحالات البارزة فالى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها فى الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التى فشت فى ذلك المجتمع وتركته مهيض[1] الأعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا ان عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الاساة[2] الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحانى ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج ، واذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الأعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية فى جملتها ، فليس أحوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس أشد منه تعطشا الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل الرواد السابقين ..

وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء ، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه وهو بلاط الملك هيرود ، فانها البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الأخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهير كفؤا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ، وقضىعلى الرسول أن يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبى هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ثم نبدأ المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء ..

---

(١) مهيض الاعصاب : العظم المهيض : المكسور . (٢) الاساة : جمع آس وهو الطبيب .

الحياة الدينية

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت فى حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها اناس مختلفون فى الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت فى رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند الى الشواطىء الأطلسية وكثر الحديث بين النـاس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا الى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثرا فى موضوعنا ــ عبقرية المسيح ــ ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيـادة الديانة الرومانية كما جرت العادة فى كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقـائد الشرق هى التى غلبت على رومة وأتباعها ، وهى التى انتقلت من الأمم المحكومة الى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هـذه القـاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها

وليس فى الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لأول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب فى تلك المرحلة كان هو السنة

الطبيعية التى تؤيدها جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل ..

***

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقا للقياصرة وموافقا للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الألوهية فى أجسام الملوك ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبّه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس — خليفة الاسكندر — يطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى أو صاحب الشارة الالهية

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط الى الجيوش التى كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمنا ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما حدث فى عهد الاسكندر — وأن يطلب الربوبية من القياصرة !..

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية ، وانه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالأسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل فى القدم ، لا تزال بقاياه فى التقويم الأوربى من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ..

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار

السماء وأسرارها : ما دامت الأرض فى أيديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء ! ..

لهذا زحفت على العالم الروحانى نحلة « مثرا » ، ونحلة « ايزيس » ، ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانيـة من آسيا الصغرى ، ومرجعها هى أيضا الى الشرق القديم

***

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى بالبلاد الانجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما ، صفة النور الذى يبدد الظلام ، والحق الذى يمحق الباطل : والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيـل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على اله الشر اهرمان وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليـل ، يعبـده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى أعمالهم الليلية ، ويعتقدون انه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس الى استطلاع الأسرار والطموح الى الترقى فى درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعباده درجات سبع يتنقلون فيهـا من درجة الى درجة على أيدى الأئمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا أو جهرا على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا الى حلاوة الايمان

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية فى غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « دمتر » ونحلوها صـفتها المصريه وهى صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون

لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزا للأمومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم فى الغرب ، محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولا شك ان المراسم السرية التى تلازم نحلة « ايزيس » كان لها أثرها فى تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الأثر فى عبادة « مثرا » وما شابهها من العبادات

وخرجت من مصر أيضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين اليها ، وهى نحلة المتنطسين Therapeuts التى ذكرها الحكيم الاسكندرى اليهودى فيلون ، وقال ان أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك فى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليونانى معناه الاساة أو المتنطسون ، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول مريوط القديمة ، ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين ، وأشرنا اليهم فى الكلام على فرق اليهود ..

ومما يلاحظ ان نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الأسرار الدينية » اختصاصا للشرق القديم ويرجعون الى اليونان فى مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة « الاورفية » الى ديانة شرقية تجرى على سنة الشرق فى التقشف والأخوة الروحية ، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل فى وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى اليه ثم أصبح التأليف بين الضوارى والنعم رمزا الى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم

ويلبسون الثيــاب البيضــاء ولا يذوقون الخمر الا فى مواسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين فى أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه ، وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع ، وكثيرا ما قيل فى كتب المقابلة بين الأديان أن أتون الاله المصرى وادونيس الاله اليونانى وأدوناى بمعنى الســيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة ترجع الى مصدرها المصرى القديم

***

ومن الواضح أن هذه النحل التى كانت تصطفى الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التى تضم اليها المشتغلين بغرض واحد أو المتفقين فى المزاج والعاطفة ، وكانت أقرب الى الجماعات الفنيــة الرياضية التى تقوم على تخير الأذواق وتوحيــد العلاقات بين الأشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هــذه الحقــائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون ، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الالفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقــات رياضيــة أو فنية فهى عنده بمثــابة الأندية التى تصون روادها من الاخلاط و « الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوى الجهــالة والاسفاف

ولكن الدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هــذه النحل فى عصر الميــلاد انها « أولا » علامة على طلب الاعتقاد واحســاس المخلصــين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء[1] فى جو التقاليد والمعتقدات

وانها « ثانيا » علامة على الوجهة العالمية التى أخذت تسرى فى أنحاء

---

(١) الخواء : الفراغ .

العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها الى أعلاها

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها ، وكانت على دأبها سادرة فى عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل فى هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر محافل الأعياد العامة التى تقام لهذا « الرب » أو لتلك « الربة » أو تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية ساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، اذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى لا يكلف الدولة شيئا أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع وزغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجرى فى مجراها الى « العالمية » التى تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها ، وأهم من هذه « العالمية » فى النحل والمحافل « عالمية » فى اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التى كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هى لسان « يهوا » الذى يخاطب به الأنبياء ويناجى به الكهان فى المحارب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحى باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية

فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها فى عصر الميـلاد وما بعـده ، فكانت الآراميـة هى اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هى لغة الأناجيل ، وكانت السريانية هى لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح ..

***

وأهم الظواهر التى تسجل فى سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميـلاد أن العقائد الوثنيـة كانت فى حالة أشبـه ما تكون بحالة التصفية قبـل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس ان القيصر أغسطس جمع فى سنة « ١٢ قبل الميلاد » قرابة ألفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقيـة وأمر بها فأحرقت علانيـة ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها فى صندوقين مذهبين ونقلها الى معبد الاله ابولون ، وفى هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية فى ذلك الجيل ..

الحيــاة الفكرية

كانت المذاهب الفكرية التى يتحدث بها المثقفون شائعة فى بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرها الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهى التى تعنينا فضلا عن شهرتها ، لأنها هى المذاهب التى تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان فى عصر يشبه عندهم العصر الذى ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هــذين المذهبين ــ على تناقضهما ــ رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهى حالة الترف والبــذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحــدة وهى : طلب السكينة والراحة ، الا ان الفيثاغورية التى ظهرت قبل عصر الترف والسلطان أقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهى جميعا أقرب الى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى ..

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع فى « اخوة » ذات شــعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التى تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون فى رئيسهم فيثاغوراس انه ابن الاله « ابولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وان الروح فى الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمــال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك

أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا يلتقطوا شيئا وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا فى المرآة الى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحا تسكنها الى حين ، وعندهم ان الناس درجات : بشر ، وانصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء فى اخوته ويوجب المشاركة فى الأقوات والمقتنيات التى تصل الى أيدى الجماعة ، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه . فالعالم فى رأى الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان

والأفكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق الكلمة ثيورى Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة و«الانسجام» بينه وبين موسيقى الكون .. اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة ، ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التى تخلق منها جميع الأشياء

وقيل ان لهم أغراضا سياسية وانهم كانوا يتآمرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته أو اخوته فى جميع الأقطار ، ولا سيما الأقطار التى أقام فيها اليونان المستشرقون

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين

المثقفين فى جميع أنحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة

***

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الأشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هربا من الاضطهاد ، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين

واذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لأنه كان يقضى معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألما ولا ندما ، ولهذا كان يتجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور «المتحرك» وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك ، وسرور مستقر أو ساكن ، وأفضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة ..

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع ، ومن أعرض عن سرور يستطيعه فى غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم

وقد أنحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لأنها محشوة بالخرافات والأكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ،

ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات الا فى لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود ... ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها الى الأسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه الى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه فى السرور والألم ، فان لم يكن فى الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور فى عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية — خلافا للرواقية — لا تعفى أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها فى أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التى يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة

***

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين ، فهاتان الكلمتان هما : الصبر والعفة

الصبر على الشدائد ، والعفة عن الشهوات ، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجرى على حسب المشيئة الالهية ، والوحى والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقى الانسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم . وفضيلته الانسانية هى أن يطيع العقل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هى طلب المعرفة ، وسعادة الانسان كلها هى السعادة التى تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل

واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الأكبر « زيوس » لايستطيع أن يجعل الجسد حرا من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية ، فنصبح بنعمته اخوانا لا يفرّق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة ، وأينما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة فى النفس التى تعبد وليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد

ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى أثرت عن زعيمهم كلياتس (٣١٠ ـ ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا : « اهدنى يازيوس ، أيها القدر . خذ بيدى الى حيث أردت أن ترسلنى . خذ بيدى أتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لى ولا نجاة »

***

ويتبع الرواقى طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فان الاله الأكبر لايريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا الا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء

وقد أخذ الرواقيون من الهند ـ بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر ـ ان العالم ينقضى ويعود فى دوران أبدية لا تعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم ان أرواح الحكماء تبقى فى كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية ، وهى النار التى تطهّر جميع الموجودات لتتخلص من أوشابها[1] ثم تعود دواليك فى وجود بعد وجود

---

(١) أوشابها : أخلاطها .

وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيما الفطنين الكبيرين فى هذه المدرسة زينون (٣٤٠ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ — ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعا من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقى الأكبر — زينون — كما لخصناه فى كتابنا عن الله « ان الاله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الاله ، وان الاله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos — وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthoologos أو الكلمة الحقة — هو والاله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة الهية ويعتقد — كما أسلفنا — ان الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق Sparmathos logos كما تجرى مادة التوليد فى بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة ؛ لأن ما يتصف لأنه عظيم . ويفسر زينون تعدد الآلهة فى معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات ان هى الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية »

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد ــ بوزيدون الذى أشرنا اليه ــ كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانها ترتقى صعدا فى السماء على حسب ارتقائها فى المعرفة والفضيلة .. فمن الأرواح مايرفرف على مقربة من الأرض ، ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى ألحانها فى مسراها الى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند فى بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها فى بحوثه الفكرية الدينية ، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « الرواقيون والشكوكيون » Stoics & Sceptics ان المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة ، وهى مقياس يونانى يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال ان هذا التقدير كان فى حساب كولمبس عندما قصد الى الهند من طريق البحار الغربية

***

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذى أعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى الى أقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور امامه الأول ــ زينون ــ بنحو أربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق أبيكتيتس (٦٠ ــ ١٠٠ بعد الميلاد) والأمبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١ ــ ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه ..

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين ؛ وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من أزياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة

الوطنية التى لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشيا مع نزعتهم الى التجديد ..

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية فى العالم الاسرائيلى ان عصر الميلاد أنجب أكبر فلاسفة الاسرائيليين فى العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذى ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال انها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس ، وعبادة أوزيريس سرابيس التى تأسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى ورومة وبعض الموانىء الآسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم فى الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الألغاز والزيادات ، وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقا لمشيئتها

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق : « ان معنى اسحاق فى لغتنا الضاحك. ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى يأتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قربانا الى الله مبينا بذلك فى هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ،

وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله »

ومذهب فيلون فى الصلاة ان الانسان يصلى شـكرا لله على ما فى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعـا رجالا ونساء ويونانا وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسـا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة أقسام : وليد الأرض ، ووليد السماء ، ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متـاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرّد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين

***

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصـوامع ، لأن اختـلاف المكان لا يصنع شيئا وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، يهدى ركاب الروح الى حيث يشاء

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن الشرائع الخاصة : « ان الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطى النـاس كل شيء ومن عطـاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم اليه بنفسه لا يحتقب[1] شيئا غير الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال »

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بنى الانسان كافة .. وكان يقول : ان اسرائيل انما سمى بهـذا الاسـم لأنه ينظر الى الله ، فكل ناظر الى الله اسرائيل ، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى اسرائيـل انهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الانسـان باعجاب جميع العشائر فان الأثينيين يرفضون شـعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شـعائر الأثينيين ، ولم يعهـد فى

---

(١) يحتقب : يدخر .

المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو فى السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا ، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام فى عرف الاغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالافراط فى الشراب والطعام وشهوات الأجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى اسرائيل

يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة ان اسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد اذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر، وذنبهم عند الناس انهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض الى النفوس « ومع هذا يقول لنا موسى أن يتتم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبِّر الكون الذى وقعت اسرائيل من نصيبه وفرِزت من العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم »

***

تلك غاية الشوط الذى انتهى اليه فيلون فى زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوى الأتباع فى الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجا صالحا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى أوائل عصر الميلاد

الفصل الثالث

تاريخ الميلاد

- أرض الجليل
- متى ولد المسيح ؟
- صورة وصفية

أرض الجـــليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل ـــ أو جليل الأمم ـــ كما كان يسميها الاسرائيليون ، لأنها كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم فى زمن من الأزمان

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب ..

وكانت الجليـــل جزءا من أقاليم الشاطىء الشـــمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم أطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » من اللون الأحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض الى خليج فارس الى أقصى المشرق واشتهرت فى هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية خلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء وهى يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليـــل من قديم الزمن بالسيـــاح والمقيمين من جميع أمم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صـــلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بنـــاء السفن ورصد الكواكب والكتابة ، حتى تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية فى بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت الى ســـائر الأمم الأوربية ..

وقد دخل بعض بلاد الجليل — أو كنعان — فى مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة ، وجاء فى العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان فى تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك أن سليمان أرسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ، ويقول له : « انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » . (١) ومنه وصف المهندس الذى كان أبوه من صدر وأمه من سبط نفتالى ، وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل فى النحاس

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى ..

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها الى عقائد الكنعانيين ، والى ذلك يشير العهد القديم فى سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا ابعليم وتركوا اله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر » والى ذلك أيضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الأول حيث يقول النبى ايليا : « ان بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك » الى أن يقول : « وقد أبقيت فى اسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله »

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين فى الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة ، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم

(١) الاصحاح السابع فى الملوك الاول

الى الخوارج الذين انقطعوا عن أصـــولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع ان أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهى لغة أهل سورية الداخلية ، أو باليونانيـــة ، وهى لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هـــذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين ان الفينيقيين الأقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسى التى جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتهـا بالبحار الشرقية ..

***

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملتهم فى الشمال ان «حنا هيركانوس» المكابى أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد فى السامرة وبلاد فى الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب وخيَّر المقيمين فى الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التى استوطنوها منذ زمن طويل، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيرا فى روايات التاريخ ان جمهرة كبيرة من أهل الجليـــل كانوا عربا يتكلمون الآراميـــة ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميّزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير روية ، وكذلك عرف الحواريون فى الهيكل كما كانوا يعرفون فى كل فلسطين

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم : « انه لا خير يأتى من الجليل » وفى انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه : « اننا وجدنا الذى أنبأ عنه موسى » وانه من الناصرة فى الجليـــل ، فأجابه مستغربا : « أمن النـــاصرة يجىء شىء

صالح ؟ » (١) ..

وفى انجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين : « انه لم يقم نبى قط من الجليل » (٢).

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله فى نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ، ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الانسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الأخاء بين الأمم فى كنف الحجر والجمود

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات ان الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير ، وانها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هيرود انتيباس .. وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه فى نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التى تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الرومانى طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المرائى وشهد العبث من ذوى السياسة والامارة قبل الأوان ، وأدرك ان العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، وان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفسه البريئة فى آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكوت السماء فى صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام ..

---

(١) الاصحاح الاول (٢) الاصحاح السابع

متى ولـد المسيح

يفهم من رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus الى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه الى الآن

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ؛ ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات الى التقويم القديم الذى يحسبه أصحابه منـذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم ..

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات ، وانه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الأولى للميلاد ...

ففى انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات

وقد جاء فى انجيل لوقا أن السـيد المسيح قام بالدعوة فى السـنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تاسيس مدينة رومه ؛ ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل

السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات

ويذكر انجيل لوقا ان القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب — أى الاحصاء — فى كل المسكونة ، وان هذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرنيوس واليا على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف ... من مدينة الناصرة الى اليهودية ... ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر »

والمقصود بالاكتتاب هنا — على ما هو ظاهر — أمر الاحصاء الذى أشار اليه المؤرخ يوسفوس وأرّخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد وُلد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى انه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو انه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات ان الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى فى عهد سأتورنينس Saturninus والى سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الأولى للميلاد ..

ومن القرائن التى لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذى قيل ان كهّان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به الى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح ..

فمن المعروف ان خبراء فينيقيــة وفارس كانوا يشــتغلون بالفلك والتنجيم ، وانهم كانوا فى عصر الميــلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المرتقب من حين الى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفى داخل البــلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبــادة واستيحاء الارادة الالهية ، ويكفى أن نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية الى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الأرصــاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصــة فى لزومياته :

قران المشــترى زحــلا يرجى
لايقـــاظ النواظر من كراها

وهيهات البرية فى ضـــلال
وقـد فطن اللبيب لما اعتراها

وكم رأت الفــراقـد والثريا
قبـائل ثم أضحت فى ثراها

تقضى الناس جيلا بعد جيل
وخلفت النجـوم كمـا تراها

***

فاذا كان هــذا ما تخلف من العناية بالأرصاد فى البقعة الفينيقيه الى أيام المعرى فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الاهمال ، لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع

هذه الدلالات ..

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه « حيـاة المسيح » (١) أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحـل حوالى سنة ٧٤٧ رومانية ، ويقول فرار فى وصف هـذه الظاهرة : « ان قران المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعد مائتى سنة ، ولا يعود الى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله الا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له ان القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى مثلث النونين أو الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية ..

ويظهر من هـذا الحساب ان تاريخ الميـلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب ، وان السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد

ونعود فنقول ان اثبات الرصد لايستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك .. وكل ما يفهم ، ولا يجوز أن يهمل ، ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسـماه ابن الكوكب « باركوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التى سكها صـورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيـل الى تلك الظاهرة الفلـكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة

على ان الدراسات الأخيرة فى علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما الى مبحث عويص أدق جدا من

---

(١) الجزء الاول ص ٣١ الطبعـةالثانية من مطبعة كاسل

المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الأنبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك الى الأدب كما سرى الى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ انها وجدت فعلا ولكنها لم تصنع ما نسبوه اليها ، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها ..

وقد زار فولتير ــ امام الشاكين ــ بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الالمانى ويلاند : « هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ » وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون ان السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، وأحدهما انه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره والآخر ان روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب الى الأساطير والفروض

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس **Josephus** وتاسيتس **Tacitus** وسوتينوس **Suctonius** وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة الى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون انها أضيفت بقلم أحد القراء المتـأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة الى أعظم الحوادث فى ذلك العصر فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سـواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « انه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس ــ ان جاز أن يسمى انسانا ــ بعد ما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والاغريق ، وكان هو المسيح »

قالوا : « ان يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أوتفصيل»

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذى ألف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » وأدرك به هجمة الشكوك الأولى فى سنة ١٨٣٦ (١)

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وان العبارة نفسها موجودة فى النسخة العربية التى تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وان كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار فى موضع آخر الى جيمس اسقف أورشليم حيث قال : « ان حنـانا عقـد السنهدرين اليهودى وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة »

(١) Introduction to the critical study and knowledge of the holy scriptures

قال هورن : « ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة فى تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التى يدعيها »

وألم هورن الى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط فى كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال ان هـذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا فى غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح فى نبوءات كتب التوراة ..

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودى مؤمنا بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة ..

أما المؤرخ الرومانى تاسيتس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لايرجع الى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل أشار الى اسمه فى سياق الكلام على حريق رومه حيث قال : « ان الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذى حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت فى عهد القيصر طيبريوس »

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس فى رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال فى تاريخه لقيصر كلوديس : « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين

كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لأن الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب ، وكريستس بمعنى المسيح ..

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته الا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثانى للميلاد ، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه فى ذلك التاريخ

وقد عاش فى عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش فى الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الأول للميلاد ، ولم ترد فى تاريخه اشارة مباشرة أو غير مباشرة الى الدعوة المسيحية

تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية فى عصرها

أما الحجة الأخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب فى العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر فى ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق فى لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذى يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد فى يوم الاعتدال الخريفى على حساب الأقدمين ، والاحتفال بيوم الأحد الذى اعتقدوا قديما انه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم فى اللغات الأوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الأم والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد .. فان التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلهـا أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى أن يقـال ان أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خـلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعـاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الأناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر أتبـاع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الاصحاح الحادى عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة فى مدينـة « انطاكية » ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس انه قال محتجا : « أهون ما تقنعنى به أن أصير مسيحيا » وجاء فى الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم ... ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول ، فان تألم لأنه مسيحى فلا يخجل »

وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين .. وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ؛ وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها

طائفة مغضوب عليها فى مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك ان طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهى مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار !

***

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد — علم المقابلة بين الأديان — هى التى دفعت أصحابها فى القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى أمامنا فى هذا العصر ان هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت ، بل لعلها الى الاثبات أقرب منها الى النفى على الاجمال

نحن نرى فى هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين ، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك فى وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولى الذى اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء

ونحن نرى فى هذا العصر وفى جميع العصور أن المشهور فى صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة فى كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها فى بابها ..

وينبغى أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وان المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح فى يوم كائنا ما كان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد فى تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس . فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد فى السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية فى الخامس والعشرين من شهر

ديسمبر ، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيـدا للشمس ، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ، لأن الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار ..

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنـه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لاقنـاع أتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات أن تيسر فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب بيد Bede فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس Mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبـادة الاله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١)

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لايستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، اذ أقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية »

وفى تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لاثنى عشر اماما معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية ..

على ان النقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها ،

---

(١) كتاب Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد ان اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند «نوميديا» بشمال افريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها : « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون » [1] ... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبى الاسرائيلى ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه ..

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا فى اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث فى تاريخ الأديان أن أشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟.. ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة فى هذه الدعوة ؟.. وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟.. وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضى جيل واحد ؟.. ولماذا كان يخفى مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها الا منسوبة للسيد المسيح ؟..

ان استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخى الأديان من كل ما جمعوه أو فرقوه لينتهوا به الى فرض منقطع النظير..

***

على ان صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا فى هذه الناحية عن كثير ..

---

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

فمهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل ، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين

فان روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ؛ ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ، وأن تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى الى الشك والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لا حد لها فى نفوس الأتباع والأشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم الى معنى تلك الأحوال

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وان هذه الأقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية ..

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين ..

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة

نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى أن يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولا سيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت

***

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع ..

صورة وصفيّة

من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها انها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية ، رفعها الى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت[1] نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه .. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت[2] ناعم ، وليس فى وجهه شية[3] ، غير انه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس فى فمه ولا أنفه ما يُعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان .. مخيف اذا لام أو أنّب ، وديع محبب اذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكى ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لا يميل الى الاطناب ، وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى أكثر الرجال »

الا ان هذه الرواية مشكوك فيها وفى اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به الا انه مدسوس من أعداء المسيحية فى العصور الأولى ، كقول بعضهم انه كان قميئا[4] أحدب دميم الصورة . فان الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وأن يخلو الكلام المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك فى معرض

---

(١) سمت : السمت : الهيئة . (٢) صلت : الجبين الصلت : الواسع الواضح . (٣) شية : كل لون يخالف لون الفرس وغيره . (٤) قميئا : قبيحا .

المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية

نعم ان الأنبيـاء فى بنى اسرائيـل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبى بالدمامة والحدب لا يبقى فى طى الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة

***

وليس فى الأناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحا أو تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام تثنائيل حين رآه لأول مرة انه رائع المنظر ملكى الشـارة ، اذ قال له : « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » ... وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على أية حال تحية لا تقـال للأحـدب ولا للدميم المشنوء [1]!

غير اننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذى قيل عنه غير مرة انهم أخذتهم كلماته ، لأنه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التى يستند اليها فى حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لأن وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس [2] فى المقابلة بين الشطور

وذوق الجمال باد فى شعوره كما هو باد فى تعبيره وتفكيره ، والتفاته الدائم الى الأزهار والكروم والحدائق التى يكثر من التشبيه بها فى أمثاله عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والاعجاب بمحاسن الطبيعة ، وكثيرا ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة — بحيرة طبرية — منبرا يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب

---

(١) المشنوء : المكروه • (٢) الجرس : الصوت الخفي •

كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه انه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضى سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع فى مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء ..

وقد أطبقت روايات الأناجيل على انه كان عظيم الأثر فى نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين اليه فى محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون[1] أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء . ولكن الرجل العظيم الذى يجتذب اليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، أعظم فى نفوسهن أثرا من كل عظيم ، وهو الذى من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط[2] الظنون ..

لهذا لا نستغرب أن يقال ان قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الانسان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا فى نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغوانى اللواتى تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع

***

وقد وصف نفسه بأنه « وديع متواضع الفؤاد » وقال ان الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة فى كثير من أقواله وأفعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

الا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم أواصر[3] الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات ... « مَن هى أمى ومَن هم اخوتى ؟.. من

---

(١) يلعجون : يؤلمون ويحرقون • (٢) مناط : ما تعلق به الاشياء •
(٣) أواصر : جمع آصرة وهي الرابطة •

يصنع مشيئة أبى الذى فى السماوات هو أخى وأختى وأمى » .. من ليس معى فهو على ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .. « وان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذا »

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ومهما يكن فيهـا من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لا خلاف عليه ان التجرد من أواصر المنـافع والشهوات أول الآداب التى يتأدب بها الجنود فى كل ملحمة : جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال ..

***

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر فى سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوبا لا مثنوية فيه ، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد ، وهان موت الجسد اذا كان موت الروح فى الحسبان ، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير فى المخاطرة ... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات

وفى انجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفسه الى جانب البحر حين علم ان الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه ، وفى سائر الأناجيل انه كان يشكو حزنه وبثه[1] حين أحدق به الخطر ، وانه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس التى هو وشيك أن يتجرعها ، وانه كان يقول لتلاميذه : « نفسى جد حزينة ... امكثوا ها هنا واسهروا معى » ... وانه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعانى برحاءه[2] وأشجانه ويقول لهم : ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ؟.. ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء : الآن ناموا واستريحوا ! ..

---

(١) بثه : البث : الغم الشديد · (٢) برحاءه : شدة الاذى والمشقة ·

فليس الاقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وانما المحظور عليها أن تخشي الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام

***

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لاينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب فى أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد من طريقهم الى الله . فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون الى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان

لاريب ان هذه الرياضة هى التى عناها كتّاب الأناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام ، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى ، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغى التسليم بالثقة ، رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك أيها الضمير، انك انت المختار لرسالة الله ؟.. أو تطلب البرهان ؟.. فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان .. ؟

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم ، ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا

القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث ارادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الارادة ، فيترك الحوادث تمضى ويمضى معها وينتظر ما تحكم به المقادير ، وفى هذه المواقف يخيفه فى أعماق طويته أن يطلب البرهان الالهى لأنه لايريد أن يجرب الهه ، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه الى بيت المقدس فى أخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب ودسيسة الأصدقاء

***

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه جب الاستلهام والاستطلاع ، خيرا من طلب البرهان وخيرا من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قال قائل فى أمثال تلك المواقف ، ليفعل الله ما يشاء ، الا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله ..

فى لحظات كهذه اللحظات يغوص الانسان كله فى أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيها الناظرون اليه انه غائب عن نفسه ، أو هى التى صمت فيها لا يحير[١] جوابا لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب ، أو هى التى أقدم فيها لا يبالى بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لايتقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟ ..

***

ان أعمال أصحاب الرسالات لاتفهم على حقيقتها ما لم تفهم معها هذه القاعدة الأساسية فى طبيعة الرسل وهى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الايمان غاية ما يبتغونه وكثيرا ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم أقرب الى الايمان ، ولأن الاحجام شك أو انتظار برهان ،

---

(١) يحير جوابا : أحار الجواب : رده ٠

والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الأحيان

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل الى الله فى أخريات رسالته قائلا : « اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد » ..

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك ، أو أقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه اياها كما أراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة ان السلامة هى ما يريده ، وان النكول[١] هو طريقه الى اجتناب الكأس ، فليكن مسيره اذن فى غير هذه الطريق ، وليكن التسليم هو طريق الأمان

---

(١) النكول : نكل الرجل عن اليمين : نكص ، وعن العدو : هابه وجبن.

الفصل الرابع

الدعوة

- اختيار القبلة
- تجارب الدعوة
- الشريعة
- شريعة الحب
- آداب حياة
- ملكوت السماوات

الـــدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقــة الواضحة التى لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعنى بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية فى الحوادث الانســانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من أقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطـاع بين العصرين ، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ..

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ واتفقت عليها أوصــاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟ ..

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجّر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شيء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل معنى الحيـاة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضـمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال ..

***

تجمعت الثروة والكسل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهـد المرهق فى ناحية أخرى .. فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والأرقاء فى الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان ! ..

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم فى طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطاق واحـد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لا تؤمن بشيء كما نؤمن

ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل

عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وان ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب

هل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر ؟ ..

وهل كانت لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟ ..

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التى تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها فى غيره خلاص ؟ ..

***

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية فى السائد والمسود والحاكم والمحكوم

الرومانى سيد العالم بحقه ، والاسرائيلى سيد العالم بحق الهه ، واليونانى والآسيوى والمصرى كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذى يجمع عليه بين الذل والألم والجوع ، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء

ويأتى الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بنى الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وان الكرم أن تعطى من يسألك وأكرمه أن تعطى فوق ما تسأل وأن تعطى بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وان ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وان المجد الذى يتنازعه طلابه لا يستحق أن يطلب ، وان المجد الذى يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به فى ذلك الزمن ، وأبنـاء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه ولـكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطلق ، وان حالهم لابد لها من تحويل ..

أفلست العبادات ، وجاء أحـد المعبودين ــ قيصر رومة ــ فأحرق الأسفار والنبوءات ، ولم يبق منها الا ما هو الى الفن فى محراب ابولون اله الفنون ..

أما العبادة التى لم تفلس فقـد كان رأس مالها كله نسيئة[1] منتظرة .. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر ، وانما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم تتقدم ولم تتأخر، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقـد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير ..

***

وهذه هى دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت اليه ، ولو لم تكن هى طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضى عليها أربعة قرون ..

وهذه الدعوة لقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة ... فلا يفهم من هذا انها شاعت فى العالم الانسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذى تعلو أسباب قبـوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غنى عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن الدعاة

ولقد تصدى رســول الأخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذى يدعو الى الأخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو الى السلام

---

(١) نسيئة : تأجيل .

يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين ، وليس تحطيم سلاح الاقوياء علالة[1] حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول : « جئت لألقى على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم » .. وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : « أتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاما ؟ » ثم يبادر فيقول : « كلا ! .. وانما هو الصدام والانقسام ، خمسة فى البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة »

***

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بنى اسرائيل كما قال ميخا : « ما فى الناس من مستقيم ، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك ، لا تأتمنوا صاحبا ، لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التى تصطجع فى حضنك ، ان الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على أمها ثائرة ... والكنة على الحماة ، وللانسان من أهل بيته أعداء »

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الأخاء ، ومن الحرب سعيا الى السلام

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الأخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق فى جميع الأرجاء ..

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه وأتبعوه ، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعى عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا انى اشتريت حقلا ، وعلى أن أخرج فأنظره ، وقال ذاك : انى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضى لأجربها ... فغضب

---

(١) علالة : بضم العين : ما يتعلل به أي يتخذ حجة وعذرا .

السيد وقال لعبده : « اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين » . فعاد العبد وقال لسيده : « قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان » . قال السـيد : « فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » ..

ويمكن أن يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التى ينظر بها القارىء الى كلام المسيح فى الأناجيل

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العالم كله فى أمد قريب ، ويمكن أن يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة ، ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين

قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله « مامون » (١) اله المادة والمال

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك ...

فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، والى أى أمد يدوم ، وكل ما يلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين ! ..

---

(١) كلمة ارامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية .. وتلق الآن فى اللغات الاوروبية على اله المادة والمال

اختيار القبلة

كان الموقف ــ كما قدمنا ــ على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده .. فليس فى مقدوره أن يعبد ربَّين ، وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيِّدين ..

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد ، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم

اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مامون » بقلبه وقالبه ، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب

ان عبّاد « مامون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ... وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الايمان ...

« نعم .. واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى .. أطلبوا كنوزا لا تنفد فى سماواتها

حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس »

من استدبر قبلة « مامون » فهذه هى القبلة التى يتجه اليها ، وهذه هي غايتها القصوى ، وان لم تكن هى كل خطوة فى الطريق

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته وبنيه واخوته ، بل يبغض نفسه

« وما هو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعنى فى طريقى »

قال هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فاعطه : ومن أخذ ما فى يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأى فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم ؟ ان الخطاة ليحبون من يحبهم .. وأى فضل لكم ان أقرضتم من يردّون قرضكم ؟ ان الخطاة ليقرضون من يقرضهم ، بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم ... »

وقائل هذا هو القائل :

« ان أخطأ أخوك فوبّخه ، وان تاب فاغفر له ، وان أخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »

وهذا نقيض ذاك ..

هذه الرحمة التى تعمّ الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التى تشمل بها أحب الناس الى الناس : الآباء والأمهات والأبناء وذوى الرحم والقربى

انهما تتناقضان غاية التناقض الا على وجه واحد ، وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغـاية القصوى التى تستدبرها ..

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضى هنا أو هناك ، فلا جناح[١] عليك أن تمضى حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك ..

***

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة أو التفضيل ، وانما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان

انما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله وتمضى هناك مع « مامون » ..

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ونهـذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه

وفى مثل من الأمثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فى البرج الشامخ

« من منكم ــ وهو يريد أن يبنى برجا ــ لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول فى أساس البناء ، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذى تنص اليه الركاب ، فهنالك القبلة التى يتلاقى عندها ما تشعب[٢]، وينتهى اليها ما اعوج أو استقام من الدروب

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتبـاعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصـغار ، وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

---

(١) جناح : بضم الجيم : الاثم والميل ٠ (٢) شعابـا : الشعب بكسر الشين : الطريق في الجبل ٠

« دعوا الأطفال يأتون الى ولا تمنعوهم .. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه »

وقال لقوم أيقنوا انهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسى وعشار

« فأما الفريسى فراح يقول فى صلاته : حمدا لك يا الهى لانني لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم فى اليوم مرتين وأؤدى حق العشر عن كل ما أقتنيه

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمنى يا الهى أنا الخاطىء ... فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور »

***

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو انهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد ، وأن يزهد فى يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما فى الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب ، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول ..

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة مريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التى تستقبلها فهنالك تلتقى الشعاب ويحسن المآب

شــريعة الحب

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية .. لأنها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم

وكان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لا يحابى ولا يتردد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى أن يلقى بها حطبا فى الاتون

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات ..

***

وفى انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب ، وجمهــور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتا لا يتكلم ، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعَرَته رجفة فقال له الملك : لا تخف يازكريا .. ان الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويردّ بنى اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته »

وقد ذُكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى

مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا[1] ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبّح بالعشى والابكار » ..

وذكرت فى سورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى[2] من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا »

***

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فى القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتى بثمر جيد تقطع وتلقى فى النار : صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة أو دنس ، فراح ينحى

(١) حصورا : الحصور : الهيوب المحجم عن الشيء . والذي لا اربة له في النساء . (٢) الموالي : أبناء العم . وخفت الموالي من ورائي أي خفت قومي بعدي أن يضيعوا الدين .

بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لايزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله ..

***

وفى سهرة من سهرات اللهو التى تعود هيرود أن يحييها فى قصره ، وقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ما كان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم : « يا أولاد الأفاعى ، لايهجس[1] بأخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم .. انى أقول لكم ان الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم »

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم ..

***

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لا تضللها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة

---

(١) يهجس بأخلادكم : هجس الشيء في صدري خطر ودار في خلدي • والخلد ضمير الانسان ووجدانه •

والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم : أجيبونى (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس ؟.. فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم واذا أنكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين ..

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد الحذر من اغضاب ذوى الرأى والسلطان ، فقد قال عنه : « انه كان انسانا صالحا أوصى اليهود أن ببر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم ان دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت فى قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل ..

***

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ، فلم يكن متأبدا[1] ولا نافرا من الناس . بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين . وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا هذا السرف ؟.. لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام : « ما بالكم تزعجون المرأة ؟.. انها أحسنت بى عملا ، وان الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم فى كل حين »

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب

---

(١) متأبدا : تأبد البهيم : توحش . والمنزل أقفر .

فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة »

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون

الشـريعـة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى أو جانب البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى ، أو الدينى ، أو الثقافى الى نتيجة واحدة : وهى ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذى بعده دون أن يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لأنه معلق فى جميـع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها فى تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف

انما تلزم الرسالة فى أمثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه ..

والآداب الانسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسـانية ، ويشعر بتلك الحاجة العظمى

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين ..

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوما ، لأن الجريمة كلها فى جانب الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ ..

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ فى أحضان الدعوة الجديدة : أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين فى سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا الى ياجميع المتعبين والمثقلين ... احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى ... فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيرى هين وحملى خفيف »

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون انهم جائعون ، والأغنياء الذين لا يعلمون انهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون انهم مساكين ، والمتكبرين الذين لا يعلمون انهم منكسرون

***

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ، وان الأمل فى التوبة على قدر الكرم فى المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ، فأجزلهما شكرا من سومح فى الدين الكبير »

وكانت ضحية الضحايا فى ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة ... والطمأنينة ألزم ما يلزم

المرأة فى كل زمان ..

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة أحقابا بعد أحقاب ، وأطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاما فوق آكام — فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل فى رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها من دروس الحب القدسى ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين[1] ؛ وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر المريج[2] صورة مشرقة .. زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها

***

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبى ويجهل انها امرأة خاطئة ، فقال : « أتنظر الى هذه المرأة ! انى دخلت بيتك فلم يكن لقدمى فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحنى قبلة وهى منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن رأسى بزيت ، وهى قد دهنت رجلى بالطيب ... ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالى الأبواب التى فتحت للنقمة والعقاب

منذ الخطوة الأولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بابطال أو بانقاذ : لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فانه — كما تقدم — قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين :

(١) المقسطين : أقسط الرجل : عدل . (٢) المريج : بفتح فكسر : المختلط الملتبس من الامور ، ومنه : فهم في أمر مريج .

ما فاض من رومة الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لايساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه — ان تأتى — وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة — سلطة الدين قبل كل شىء — بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود

جاءوه فى ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتباك الذى لابد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران ..

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعى الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهى على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخر والكبرياء ..

فجاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق ، وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فأعنتوا عقولهم فى البحث عن المشكلات والألغاز التى يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية ، أن يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح ..

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : « أيها المعلم !.. مر أخي يقاسمني الميراث » ... وظن انه يتولى هنا سـلطة التقسـيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : « أيها الانسان ، من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا ؟ »

وتعمـدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : « أيها المعلم : هذه امرأة أخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟ »

ماذا يقول هو ؟ .. ما بالهم يسـألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبـوا بها الى قضاتها ؟ .. ان الشرك مكشوف على وجـه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال اطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو انه مكشوف معروف ؟! ..

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهى من القضية الى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه اليه ، وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم[1] وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم فى وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه ، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئـة فليتقدم وليرمها بحجر »

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم .. بل يدعهم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : « أين المشتكون منك ؟.. أما دانك أحد ؟ » فقالت : « لا أحد أيهـا السيد » . فأرسلها وهو يقول : « ولا أنا أدينك .. فاذهبى ولا تخطئى »

---

(١) جلبتهم : الجلبة : الضجة .

نعم .. لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لأن القاضى لا يدين بغير شكوى ، وبغير شهود ، وبغير بيّنة ! ..

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدّع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال : ان الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنا دفعها الى الزنا . ومن تزوج مطلقة فانه زان »

***

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين[١] من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين[٢] ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم انهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء . فلما قيل له ان شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة ، وسألوه : « لمن تؤول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة ؟ » خيل اليهم انه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ، لأن الأحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون ! ..

والحق ان الأناجيل لا تروى لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون

---

(١) المتفيهقين : تفيهق الرجل في كلامه توسع مالئا فمه • (٢) مفحمين : أفحم خصمه : أسكته بحجته القوية •

لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهى دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام انها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهان الهيكل ، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع اذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التى ترتفع الى الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعانى من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل[1] عينا أو يدخل فى الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل ..

---

(١) يسمل : سمل عينه : فقأها .

تجارب الدعوة

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .. فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا نه يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها ، وينتهى الأمر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة ، واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لايجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه[1] المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتنانا منهم فى عَصْر العبارات ونَبْش الدفائن ، واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وانما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقدح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة .. وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

---

(١) غرمائه : الغريم : الدائن ، والمديون ، والخصم . يقال : خذ من غريم السوء ما سنح .

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا ..

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة ..

وقد تنتفخ الأوداج[1] بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين ..

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة فى اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر فى سبيل العرض ، ويزول اللباب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير فى سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق فى سبيل الظواهر والأشكال

***

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهى ووراء العقاب والاحتيال

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود وأشكال ..

وعالم طلق من القيود والأشكال ، فى ساحة الضمير

روى انجيل متى فى الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال : « لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » ..

وروت الأناجيل انه عمل فى يوم السبت وسخر من المحرمات التى

---

(١) الاوداج : جمع ودج بفتحتين وهو عرق الى جانب ثغرة النحر وهما ودجان يمينا وشمالا .

لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم فى كل ما أبرموه ؟

ان شئت فقل انه نقض كل شىء

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة

لأنه نقض شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير ..

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه

وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شىء ، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التى يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائما — كما قال السيد المسيح — ما قامت الأرض والسماوات

***

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لأنه جاء بشريعة الحب ، وهى زيادة عليه ..

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء

بهذه الشريعة — شريعة الحب — نقض المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له أساسا يستقر فى الأعماق

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس

ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب

وفى اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الأدبى بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق ..

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : « لماذا تنظر الى القذى فى عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة التى فى عينك ؟ » ..

***

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من يبهت[1] ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر »

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلى بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيًّا ينمّ عليه بعبوسه وضجره.. ويلزم فى شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع « ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيّرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع

---

(١) يبهت : بهت الرجل : قذفه بالباطل وقال عليه ما لم يفعله . وفلانا : أخذه بغتة . وعليه : كذب .

على الصدور » ..

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطى بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته فى الطرقات والأسواق ، ويلزم فى شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين ..

فى شريعة الكبرياء يتقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشارين والخطاة ، وفى شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى أن يقال لهم : انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقدار ما يتلى عليهـا من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم.. فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران »

***

ومجمل القول ان الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والأشكال ، شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة « امتياز رسمى » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات

فالفضل بين الأمم « امتيـاز رسمى » محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لأبناء هرون وأبناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة فى صك مرسوم » تضمن

الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ، بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم »

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة « بل الذى يعمل مشيئة الله هو أخى وأختى وأمى » .. « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء »

***

وانما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة ، وضرب لهم مثلا : « انسانا خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه .. ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه » .. قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « أى هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة أن السامرى المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين ! ..

وراح يجبه[1] فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجى[2] الشريعة ، فقال لهم : « ان الدين بما تعمل لا بما تعلم » ... وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم فى عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم . « لأنهم يحزمون الأوقار[3] ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم .. يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ،

---

(١) يجبه : جبه الرجل : ضرب جبهته ورده عن حاجته • (٢) أحاجي : جمع أحجية بضم الهمزة وهي اللغز • (٣) الاوقار : الاثقال •

ويستـأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجـامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق وأن يقال لهم : « سيدى سيدى حيث يذهبون ... »

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القـادة العميـان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل ... انكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ـ انكم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميـل ، وداخلها عظام نخرة »

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه : أيهما أعظم فى الناموس ؟.. حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا فى كلمات معدودات : « ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك » ..

***

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر[١] والأوراق ، ولا تكون العقبى انه يهدر[٢] الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لايباح ، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لايصنعه فى سبيل الواجب ، وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء ..

---

(١) القماطر : جمع قمطر بكسر ففتح : شبه سفط من قصب تصان فيه الكتب ٠ (٢) يهدر : يبطل ٠

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . أما أنا فأقول لكم ان من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى .. فان قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك ، فدع قربانك أمام الذبح واذهب فصالح أخاك..

« وقيل للقدماء لا تزن . أما أنا فأقول لكم ان من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فأقلعها والقها عنك ، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك ..

« وقيل للقدماء لا تحنث .. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا .. وليكن كلامكم كله : نعم .. نعم .. لا .. لا .. وما زاد على ذلك فهــو من الشيطان ..

« وسمعتم انه قيل عين بعين ؛ وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين ..

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، واغفروا لمن يسىء اليكم ويطردكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات ، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين . وأى أجر لكم ان أحببتم من يحبونكم . أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وأى فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام ؟.. أليس العشارون يفعلون ذلك !.. فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل يحب الكمال »

***

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال[1] الذى تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود فى وجهته أو جزافا[2] يقوله كل قائل ويأتى لغير مناسبة ، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان وعلى عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان

***

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم فى مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح الا على عباد الألفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شىء الى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة[3] على الثوب الرديم[4]

---

(١) السجال : المباراة والمفاخرة . (٢) جزافا : الجزاف : بيعك الشيء أو اشتراؤكه بلا وزن ولا كيل . (٣) القشيبة : الجديدة . (٤) الرديم : من الثياب : البالي . وثوب رديم أو مردم : مرقع .

آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم أساتذتهم الأولون

هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح ان أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجبّ نفسه ليتقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لأقوال السيد المسيح ..

الا أن ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينيه اذا علم انها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب فى ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكفّ الأعضاء عن نزغات[1] الجسد .. فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو

---

(١) نزغات : وخزات . ونزغه : وخزه .

الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان « كلمنت الاسكندرى » يقول بحق : ان السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال أن نرفضه بتاتا فى جميع الأحوال ، والا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه ..

***

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى أقوال الحكماء المسيحية ، ولا يزال هـذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحيـاة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور «شويتزر» schweitzer الذى يرى ان السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وان الدنيا التى يهجرونها مقضى عليهـا بالفنـاء فى مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة ..

وفى اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة فى عصر السيد المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى .. ونظام فرق الفداء فى الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل .. الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنيـاهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغـذاء والكساء ؟ ..

أقول حقا انني أفهم وصايا السيد المسيح جميعا ولا أجد فى فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، واذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها فى هذا المقال : « ليس الانسان للسبت ، وانما السبت للانسان »

لقد كان هم السيد المسيح فى الاصلاح النفسى تغيير البواعث لا تغيير المقادير ..

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود

كانت العروض هى المحور الذى تدور عليه حياة الأمم والآحاد فى عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة

***

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء!

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم

واذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل . سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم ..

اذا كانت « الشهوة » هى محور الحياة فسيان من يشتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام فى طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذى يدور عليه

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا فى فصل سابق ، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق

اذا أصبح كسب النفس الانسانية ــ كسب المحور ــ هو غاية الحياة فالذى يملك الملايين زاهد كالذى يملك العشرات أو الذى لا يملك شيئا

عن الأشياء ..

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط
واذا بقى المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد
وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح
وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الانسانية

***

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذى يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غيّر المحور هذا التغيير فى زمانه.. غيّره حين قَبِل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح ..

وما كان الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات .

انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد

أنت تتهالك على جميع اللذات فى جميع الأوقات ، فتهالك عليها أياما فى الأسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها فى جميع الأيام

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع

كلا .. لم يكن الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات ، وانما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها فى مسافاتها

ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذى انحرفت عنه أو الى رر جديد

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد انه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء » ..

أترى السيد المسيح كان يفوته ان الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا .. ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب

ولكن النفس الانسانية هى المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص ..

***

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ، لأن من يعطى مجبرا أو يعطى ما لايهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء .. انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فأخلق[1] به آن يربح نفسه بقليل من العطاء

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور ..

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين

---

(١) أخلق به : صيغة تعجب معناها : ما أحقه وما أجدره .

ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ، ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع فى مكان مجتمع ، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة ، وأقامها على أساس واضح فى وصايا متعددة لا تضارب بينها ..

فالجسم أفضل من الطعام واللباس ..

والانسان أفضل من السبت ..

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم ..

ومملكة الضمير فى قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان

***

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة[1] العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها فى كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكى تفهم ، وعندها فى كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور ، وهذه الحذلقة هى التى حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبى ولا لحكيم

ان الحذلقة هى التى أبت أن تفهم حين قال القائل : ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره ... أفليس فى هذا الكلام شىء يفهمه السامع ؟.. بلى .. وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة هى التى قالت فى جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور .. !

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟.. كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة

---

(١) حذلقة : تحذلق الرجل أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده ، تقول : ان فلانا يتحذلق علينا .

من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين ! ..

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما فى حوزته ؟

أفليس فى قول السيد المسيح ما يفهم ؟.. بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد الا ظهورا « على حساب » الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها ان الجديد فى الأمر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به فى الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وانما الخلاف الذى يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والايثار

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة[1] فى قياس المسافات ولا تقدير المقادير ..

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفى حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد

---

(١) مشاحة : منازعة ومناقشة ومجادلة .

ملكوت السموات

« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »
« قرآن كريم »

هـذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التى تنتهى اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا اليه ، ثم يمضى الزمن وتنطوى المقاصـد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهـدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير فى عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير ، والى أين يسيرون ..

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمـدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟ ..

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية .. فلو أنها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستنيد فيما نعتقـد بزوال ذلك الحـادث الذى كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات فى صدر الاسلام

وماذا لو أن بنى اسرائيل فى عصر السـيد المسيح قبلوه وصـدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟ ..

كان غاية الأمر أن نبيًا من الأنبياء يضاف اسمه الى أسماء الأنبياء فى كتاب العهد القديم . وتبقى اسرائيل فى عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ ،

منسيّة لا تذكر ، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة .. رومة القياصرة والجبّارين المتألهين ..

فمما لاريب فيه ان السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى ، ومن البديهة أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التى تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب ..

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمم ؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين ..

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير

وعلى رفقه فى الخطاب ، كان ينتهر المرأة الفينيقية التى أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحى الفطرة ووحى الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التى يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصى الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدنى اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟.. ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد ! ..

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة فى نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شيء فى غير ذلك النطاق المحدود

وان لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ،

بل قد حدث فعلا أن فئة من بنى اسرائيل قبلت المسيحية على أنها «طائفة يهودية» سميت بالطائفة «الأبيونية» أى طائفة الفقراء والدراويش، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى الى اليمين ولا الى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الأردن، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرّم الاقامة على سائر اسرائيل، وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الأبيونيون

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذى أولم الولائم، وأرسل الى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى ما بعد يوم الوليمة، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر، ومن تزويه الأزقة أو تقذف به الطريق، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة، وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون اليها، ويتقدم اليها من هم أحق بها، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوّون المتبطرون ..

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف فى دعواهم فأنكروه وألحفوا فى انكاره: «ان الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس الزاوية، ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، هناك يُدعى الكثيرون ولا يُنتخب الا القليلون» ..

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلّت وصاياه التى يخص بها «الأمة» ويفردها بين الأمم، وكثرت فى وصاياه الآداب الانسانية التى يستحق بها الانسان ملكوت السماوات، فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التى ينتمى اليها، وفهم السامعون من الملكوت انه حق

---

(١) الغمار: بالضم والفتح: كثرة الناس وجمعهم المتكاثف، تقول: دخلت في غمار الناس. (٢) تزويه: زوى الشيء نحاه، وسره عنه: طواه.

لمن يقصده من بنى الانسان أجمعين

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الأناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان

كذلك يبدو من بعض الأقوال انه حاضر على الأبواب ، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا فى ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وأن الضلال فى دعواه طويل الأمد « لا يضلنّكم أحد .. فان كثيرين سيأتون باسمى فيضلُّ بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد ، بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الأوجاع ، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم فى سبيلى ، ثم يأتى أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر محبة كثيرين ، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون ، وينادى ببشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم (٢٤ متى)

وأحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم ، ولو عرف رب البيت فى أى هزيع[١] يأتى السارق ما سرق ، فاستعدُّوا أنتم كذلك .. لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى ابن الانسان » ..

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « أطلبوا أولا ملكوت الله وبره » — (٦ متى) — « وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » — (١٣ متى)

---

(١) هزيع : الهزيع المدة من الليل .

وأحيانا يطلق على الرسالة التى يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « اجعل لكم ملكوتا كما جعل لى أبى » ، ويقول لوقا : « ان التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد[1] أن يظهر فى الحال » ــ (١٩ لوقا)

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شىء الى البداهة وطبائع الأمور

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذى يفهم كل سامع انه هو العالم الآخر ، وانه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التى جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا ، هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود ؛ أو ينتهى العالم الأرضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الأرضى المعهود

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد ، بل الغريب أن يخلو كلام السيد المسيح من هذا النذير، سواء ظهر فى ذلك الوقت أو ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الأنظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى فى تقديرنا فليكن فى الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى ، ولاسيما الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة . كما هو الواقع فى جميع الرسالات ..

ففى رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيستحقون بها الملكوت فى العالم الآخر

---

(١) عتيد : الحاضر المهيأ .

هــذا الملكوت أيضا ـــ ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان ـــ يقع فى البال حتما ان الســـيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه

ولا بد من لبس هنا مع اللبس[1] الذى يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حينا الى الملكوت يوم القيامة

أما اللبس فى فهم الملكوت الذى يدور على الرسالة المسيحية ـــ أو رسالة ابن الانسان ـــ فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها ، فالملكوت فى الدعوة التى يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت فى الدعوة التى لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعمّ الأمم أجمعين ..

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس اذا دعى السامعون الى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس الســـيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت فى موضع من المواضع بروزها فى الأسئلة التى توالت منهم عليه وفى الحيرة التى دلت عليها هــذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليـــد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظـــل التلاميـــذ يحسبون أن الملكوت يأتى بدولة بنى اسرائيل : « فسألوه قائلين : يارب ! .. هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟.. فقال لهم : « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى أودعها الأب سلطانه ، لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح المقدس ، وستكونون شهداء لى فى أورشـــليم وفى اليهودية جميعا ، وفى الســـامرة ، والى أقصى المسكونة » ..

ونعود فنقول ان اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم

---

(١) لبس : مصدر بمعنى الاشكال والاختلاط والاشتباه ٠

ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما فى استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة ، وانها هى الوصف المقصود

والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الانسان فى كل زمان ، اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله ؟.. أجابهم انه لايأتى بمراقبة . ولا يقول قائل هو ذا ها هنا وهو ذا هناك ، لأنه هو الآن فى داخلكم » (١٧ لوقا)

فالذين استغربوا الأوصاف ، ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك .. ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟.. وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى أذهان السامعين بمعنى القيامة وورودِه أحيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟.. بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لابد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم ؟..

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لا يعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ،

وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذى يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه

***

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن أمة واحدة الى سائر الأمم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان

وحدث هذا التحول والعالم الانسانى متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر[1] أغوارها ..

والعالم الانسانى يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شىء من قبيلها ..

مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منهـا مزايا الوحـدة ويتطلعوا من ورائها الى الأخوة والصفاء

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تنحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحـد لأناس من جميع العصب والسلالات ، لايشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، اما فى ربقة الرق الصراح أو فى ربقة أخرى لا تقل عنها فى القسوة والنقمة ، وهى ربقة الحرمان والقنوط

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول يجمع الأقوام

---

(١) يسبر أغوارها : سبر يسبر : قاس يقيس ، والاغوار جمع غور وهو العمق ، أي يقيس أعماقها ·

الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل ما يحدث فى الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام

أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الانسانى فلم تعهد قط فى غير الأديان الكتابية أو الأديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بالله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول فى تلك الفترة

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه ، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته فى ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقات التى يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة — رسالة الملكوت السماوى — فقد نشأت فى عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ما رووه عن جوليان — سواء قاله أو لم يقله — فانتصر « الجليلى » بملكوته السماوى على ممالك القياصر ، وضم القياصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله !..

الفصل الخامس

أدوات الدّعوة

- قدرة المعلم
- اخلاص التلاميذ

قدرة المعلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة فى العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل ، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجا اليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لايذكران فى معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء ، وقد يتفقان فى وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التى لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم فى عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده فى تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا « سلبيا » بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته فى بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث فى شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التى تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم ما يقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة انه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها ..

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما فى ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيــدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية فى أولئك الرسل والدعاة

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح . وأولها قدرة الداعى على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحقٍّ سمِّى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحى حيوى من طريق التعليم

***

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيــل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصــومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين ..

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون فى كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة فى الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفى ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والأحكام

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لايفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج الى بيت المقدس فى الأعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يســافرون الى الاسكندرية وبلاد الاغريق ولا يتفــاهسون بغير اليونانية مع أبنــاء جلدتهم هناك ، فلا غرابة فى معرفة السيد المسيح

باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التى تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التى كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التى جاءت فى الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامى بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود فى تلك الآونة ، فربما كان فى بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذى يبث الحياة الروحانية فى النفوس وينفث فى الخواطر تلك الراحة التى تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الأنغام التى كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ

لقد كانت اللغة التى حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة فى القوة والنفاذ

كانت لغة فذة فى تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة فى بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة فى طابعها الذى لا يشبهه طابع آخر فى الكلام المسموع أو المكتوب .. ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التى نعرفها فى اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف فى اللغة الآرامية ولا فى اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا

---

(١) التصريعات : التصريع في فن البديع أن يتفق عروض البيت من الشعر وضربه في الوزن والاعراب والتقفية وأحسن ما يكون في أول القصيدة ٠

تتكرر بلفظها المعاد ..

كان أسلوبه فى ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير وليس فى الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« اسألوا تعطوا
« اطلبوا تجدوا
« اقرعوا يفتح لكم
« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب
« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا ؟
« أو يسأله سمكة فيعطيه حية ؟
« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا ؟
« فاذا كنتم ـــ وأنتم أشرار ـــ تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون »

أو كما فى هذا المثال :

« كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الانسان
« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، الى اليوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع
« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيه لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع
« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الانسان
« فى ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته فى البيت فلا يهبط اليها ليأخذها ..
« ومن كان فى الحقل فلا يرجع الى الوراء . ألا تذكرون امرأة لوط ؟
« ومن طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها
« أقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد

فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه
« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى
« ويكون اثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك
« .... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور »

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم :
« يا أورشليم ، يا أورشليم ! ..
« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين
« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ..
« ولم تريدوا ..
« هو ذا بيتكم رهين بالخراب »
وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :
« يا بنات أورشليم ! ..
« لا تبكين على .. وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين ..
« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع ..
« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم
« ان كان بالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟ »

***

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير ..

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال فى كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقالب الذى يعول على الحكمة ، والقالب الذى يعول على القياس ، والقالب الذى يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذى انفرد بين أنبياء

الكتب الدينية بغير نظير ، وان كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال ..

***

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذور . « زارع خرج ليزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق فى جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له أذنان للسمع فليسمع »

ومن نماذجه مثل فتيـات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنـات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، وأما الفطنات فأخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : ها هو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه .. فالتفتت الغافلات الى مصـابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يبـاع . وفيما هن ذاهبـات قدم العريس .. وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين : افتح لنا يا سيد .. افتح لنا يا سيد .. فأجابهن : من أنتن ؟ .. انى لا أعرفكن ! .. »

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة ، من يقبل على لا يجوع »

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » .. « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » .. « أيها المداوى داو نفسك » .. « خمر جديدة فى زقاق قديمة » .. « لا تدع يسارك تعلم

بما تصنع يمينك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لا كرامة لنبى فى وطنه » ..

ومن نماذج المثـل الذى يعول على القياس : « ان كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ .. أليس ذلك شأن العشارين ؟ »

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالأصحاء الى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون الى الأطباء » ، ومنه : « ان كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون ! .. »

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه : « أنتم ملح الأرض ، فان فسد الملح فبماذا يملّح ؟.. انه لا يصلح اذن الا لأن يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار »

***

ومن نماذجـه : « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسـد السوس والصدأ وحيث ينقب السـارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص وحيث يكون الكنز يكون القلب » ..

وقد أثر عن السيد المسيح فى جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشبة فى أعينهم » .. « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » .. « فى الظاهر جدران مبيضـة ، وفى الباطن عظام نخرة » .. « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط »

ومعظم هذه الأمثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر : جوابا على سؤال ، أو تعقيبا على حادث عارض ، أو تقريعا لمكابر ، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التى توحيها ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية فى المقاصد المختلفة لم تصـدر عنه فى سياق

واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل ـ وهى أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات ـ جمعت من متفرقات كانت منجمة[1] على حسب الموضوعات فى أوقاتها ومناسباتها

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعانى المنسوقة فى البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غير هذه الأحوال ، فتجرى كلماته فى مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل ، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وانه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير فى بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودوا التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك أن يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبل الآن ؟ .. والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفى الى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحد : غريبا لأنه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريبا لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك

***

ومن كان كالسيد المسيح تربّى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحى والايحاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته .. وهذه هى البديهة التى كان يعنيها حين يوصى تلاميذه بالاعتماد

---

(١) منجمة : مقسمة الى أقساط .

على الطبع ، وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التى تدعوهم دواعيها للخطاب ..

ولعل سامعى العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الأمثال فى قوالبها مرات كثيرة .. ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو استمعوا الى خطيب فى غير المعابد ، فان نقاد البيان العبرى والآرامى يردئون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التى كانت تشيع فى أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذى كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة فى أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور ..

***

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد فينجاب[1] الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذى يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج[2] الذى يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء ولا اقتحام

---

(١) ينجاب : انجاب النوب : انشق ، والسحابة : انكشفت ٠ (٢) سدفة: ظلمة ٠ (٣) المدلج : أدلج : سار الليل كله ٠

فى وسعنا أن تتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة

وفى وسعنا أن تتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا رسالة فى الحق بغير رسول ، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح ، فان مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها وهو الأصـل الأصيل فى قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيادات

***

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هداية انسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والأفهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق فى الميدان لأنه صـاحب السبق فى الدعوة وصـاحب السبق فى الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح .. وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها .. والصالح لاقامتها ، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه ..

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول فى كل دعوة انهم دعاة ، أى انهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة ..

أما الفضل الأول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا فى الواقع هم الصف الأول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعوة سواء

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدى بتلك الأمة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم وهم الصف الأول فى الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى اليه ..

كانوا نموذج الأمة المسيحية فى أول الرسالة ، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا[١] وراء رعيل ..

فى الدعوات قادة ومقودون ..

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين

---

(١) رعيلا : الرعيل كل قطعة متقدمة من خيل ورجال وطير وغير ذلك .

وآخرين ..

وليس فى سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة ، فهم جميعا من بيئة واحدة ، وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة ، كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى السيد المسيح

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له : اتبعنى .. فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التى يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها ، وهى مزية الاصغاء والاتباع

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين ، فلو أصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا فى مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لأن كفاءتهم ولا شك هى الكفاءة الوسطى فى كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة .. فلم يكن منهم عَلَم بارز لايتكرر بهذه النسبة فى أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال فى واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر ، أو أن واحدا منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب ..

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء فى الأناجيل

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين ..

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب الى الأذهان هذا المعنى الذى نرى له المكان الأول فى فهم الدعوة وأسباب سريانها

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع

هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثتها فيهم روح المعلم القدير

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم فى تلك العيوب ..

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسـألونه مزيدا من التوضـيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم ايمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هـذه الشكوك ..

ولم يحسب قط انهم طود لايتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما أمام هول من الأهوال ..

فقد أنبأهم انهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لأنهم — بعد وعظهم وتذكيرهم — لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر ، أو تفوته منهم فى أوائلهم حالة ظهرت له فى أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية على انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم الواسع أن يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا فى أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثـلا يقتـدى به المخلصون ..

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك

مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوا

***

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الانجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره فى القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ .. فمنهم من يقول : انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول : انه الياس ، ومنهم من يقول : انه نبى مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : وأنتم من تقولون انى أنا هو ؟.. فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد فى رواية انجيل مرقس . أما فى انجيل متى فقد روى ان بطرس قال : « انت هو المسيح بن الله الحى » ، فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان بن يونا . ان مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبى الذى فى السماوات ، وأنا أقول لك انك أنت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح »

أما انجيل لوقا فالرواية فيه أقرب الى رواية انجيل مرقس : « ففيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا : ماذا تقول الجموع عنى ؟ .. فأجابوا : انهم يقولون : يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون : الياس ، وآخرون يقولون : ان نبيا من القدماء قام . ثم سألهم : وأنتم من تقولون ؟ .. فقال بطرس : مسيح الله .. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد » ..

---

(١) الكلمة الارامية صفا بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس « بيتر » هى ترجمة الكلمة باليونانية

والرواية فى يوحنا أقرب الى تصوير ما قدمنـاه ، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه « وان كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : ألعلـكم أنتم تريدون أيضـا أن تذهبوا ؟.. فأجاب سمعان بطرس : يارب !.. الى أين نذهب ؟.. كلام الحياة الأبدية عندك ؟ .. ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح بن الله الحى ، فأجابهم : ألست أنا اخترتكم ... وواحد منكم شيطان ! .. »

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم فى كلامى كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لأحد ، فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا ؟ .. قال : الحق الحق أقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا . انما يبقى فيه الابن الى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا .. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم ، لكنكم تريدون قتلى لأن كلامى لا يقع منكم موقعا ، أنا أتكلم بما رأيت عند أبى وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم ، فأجابوه : ان أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ، ولكنكم الآن تطلبون دمى وأنا انسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح[1] لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت اليكم . اننى لم آت من نفسى بل هو أرسلنى ... أنتم من أب هو ابليس ... »

فأجابه اليهود : « ألا نقول حسنا انك سامرى وبك شيطان » . وبعد أن قال لهم : ان من يحفظ كلامى لن يرى الموت عادوا يقولون : « الآن تبين لنا أن بك شيطانا . قد مات ابراهيم وأنت تقول : ان حفظ أحـد كلامى لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ .. ألعلك أعظم من أبينـا ابراهيم الذى مات » ..

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى فى دعوته زمنا ولم

---

(١) سفاح : اقامة المرأة مع الرجل من غير عقد .

يذكر لتلاميــذه انه هو المسيح الموعود ، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لايدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وانه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ ، وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : « انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس »

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الأبد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التى ليس فوقها غاية ، فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل فى الخلاص من هذا الطريق ، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه

***

والشائع ان التلاميذ كانوا طائفة من صيادى السمك فى بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند اناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم طبقة عمال الصيــد الأميين ، ولكنه فهم متعجل مبنى على قيــاس غير صائب . اذ الواقع انهم كانوا طــائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا فى العلم مبلغ الفقهاء فى زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدى والمكابرة ، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلية فى الغباء ، وكان منهم من نسميه فى عصرنا هــذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانيــة كما هو الأرجح » قدرة لا تتأتى لغير المثقفين ، ومنهم يوحنا الذى ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بنى خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح فى تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخــذ من

انجيل مرقس حيث يقول : « انهما تركا أباهما فى السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح »

ومنهم جيمس [١] قريب المسيح ويوحنا أو « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته فى الانذار وتشديد النكير، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت فى عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان

وقد استمالت الدعوة اليها فى عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية فى تقويضه أو الاجهاز عليه

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة انحنائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم ان الشريعة الفاسدة فى أيدى الجامدين أو المنافقين هى الفوضى فى صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للأعمال فى مجتمعه الصغير ـ مجتمع التلاميذ ـ بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب

---

(١) ورد فى بعض المراجع أن « جيمس » تصحيف يونانى لكلمة يعقوب ، ولكن اسم يعقوب وارد فى التراجم اليونانية فالمفهوم على الارجح ان المترجم اليونانى سمع اسم جيمس من افواه الناطقين بالارامية فلم يتصرف فيه

الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين

وأدخل من هذا فى باب التنظيم انه اختار أولا اثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه .. وانهم حين عادوا من رحلتهم ، أخذهم ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة ... وهى فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول ، وضرب لهم مثلا فذا فى تاريخ الدعوات ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الأيدى والرءوس

وحصر جهده كله فى تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الأعمال العامة ، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم : « لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ... وأى بيت دخلتموه فقولوا سلام .. وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم »

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم « ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون فى تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم »

ولم يَخف عنهم انهم مُلاقون ويلا من الناس ، فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح ..

وقد أثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى ما لا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء[1] فى أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار

وما هو الا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الأرض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الأوربية فأرسل صحابته الى افريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الأمم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح أن يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذى أصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا الى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل « السلطة » الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله ..

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة

---

(١) الوناء : الضعف والفتور والكلال .

بغير تقية ، فكان بطرس فى انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبنــاء الأمم كلما أحس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة فى سبيل مرضاة الناس

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال فى سفر كورنثوس الأول : « ... استعبدت نفسى للجميع لكى أربح الأكثرين ، وصرت لليهودى كيهودى لأربح اليهود ، وللنــاموســيين كالناموسيين ، ولغيرهم كأنتى بغير ناموس ... صرت لكلٍّ كلَّ شيء ، لعلّى أستخلص من كل حال قوما ... »

ومن ثم ولا شــك خالط المســيحيين الأول أناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتنا وشعائرها ، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهــام كلمــا نظروا فى تواريخ الأقدمين فوجدوا فى كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقا من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذى لا يبالى الموت تصديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذى يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس الى الأكاذيب ، مثل هذا لايقدم على الموت فى سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرســل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخــذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن أن يصــدق الانسان عيانا ما يصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل ..

وليذكر أدعياء التمحيص فى عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل فى القرن الأول للميلاد أن يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق .. ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر أن يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هــذا بمن يكذب انسانا لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصــناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق ..

***

ان أسخف السخف أن يقال ان دينــا من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق . ان تصــديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل .. ولكن لم يحدث قط اقبــال كذلك الاقبال الجارف الذى تلقى به الناس رســل المسيحية ، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ، ونظروا أمامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فأصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصــدود والنفور ..

الفصل السادس

الأناجيل

— شراح الأناجيل

الأنـاجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشـارة ، وقد تداول المسيحيون فى القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيـل ثم اعتمـد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع ـ أى بكثرة الأصـوات ـ وهى انجيل مرقس ، وانجيل متى ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا ، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة فى العهد الجديد

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ؛ ومنهم من يسمى هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الأقوال ، ويريدون بها الأقوال الشنفوية التى سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا فى بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ فى ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات ، وتتفق الآراء على أن هـذه الأناجيل لا تحتوى كل ما فاه به السـيد المسيح ، اذ جاءت فى أعمال الرسل التى تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد فى الأناجيل وهى : « تذكروا كلمات المسيح . ان العطاء مغبوط أكثر من الأخذ » ... وجاءت فى الأناجيل الأخرى التى لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع الى منتصف القرن الثانى لا تشبه الأناجيل المعتمدة فى نصوصها

وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم

يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التى دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع فى كتاب ، وقد كتبها فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين

والنسخة الأخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد يجمعون على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان فى افسس ولم ير السيد المسيح .. لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى

على ان الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وانه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن انجيل مرقس هو أقدم الأناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهى الأناجيل الثلاثة التى اشتهرت باسم أناجيل المقابلة ، لامكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والالحاق ، ولم تتقسم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها

فى تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولأنها فى أصلها مرجع واحد متعدد النقله والنساخ ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ ، اذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الأول للميلاد

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب « الأمم » ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الالهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل « المحافظين » والايمان بالاهية المسيح

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن «الكلمة» Logos ووصف فيه التجسد الالهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة

وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان انها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها

لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع فى مراجعتها طريقة غير التى درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار فلا نراجعها من حيث هى وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التى أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفى هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة ... فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟.. ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار .. وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض فى هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها ان الغرائب هنا شىء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذى يستغرب وليس هو المألوف الذى يدعو الى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون فى وجودها ؟..

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت فى تواريخ الأديان ، فنحن نسأل : هل هذه المعجزة لازمة فى تفسير مسألة من المسائل ؟.. فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل فى امكانها أو استحالتها ، لأن التفسير الذى يقبله كل انسان يغنى عن التفسير الذى يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة

أما رأينا نحن فى امكان المعجزات فهو رأينا فى امكان جميع الأسباب . فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال ان هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الأشياء ، وأصح ما يقال فيها قول الغزالى رحمه الله ، ان الأسباب والمسببات

تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الأوقات ، والا لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم

فاذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها ..

***

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟.. وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هــذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟.. وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان ..

ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الأناجيــل لأن تفســير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس فى الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة .. وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وان الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وان المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ولكنهم كانوا يزعمون انه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات

وبعد .. فمن الحق أن نقول ان معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم اقليم واحد ، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام ..

شــرّاح الأنـاجيل

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث فى سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه ، لأن سـياق الحوادث مختلف فى الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها فى أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التى وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه تتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية فى خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التى يمكن أن تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذى تدور الحوادث عليه

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبـل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين : احداهما ، حادثة السفر الى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو فى الثانية عشرة من عمره

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال : « ان ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واهرب الى مصر .. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ، فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وبقى فيها الى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرود جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما »

ولم يذكر خبر هذه المذبحة فى غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة فى بيت لحم — وهى فى الناصرة — لأن الاحصاء الذى أشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر فى السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس ..

أما الانجيل الذى توسع فى وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذى روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع ... » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى أورشليم ليقدموه للرب ... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهى القربان المقبول من الفقراء ..

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم فى عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد ، وبقى الصبى عند رجوعهما فى أورشليم ويوسف وأمه لايعلمان . واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يابنى . لماذا فعلت بنا هكذا ؟.. فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟.. ألم تعلما حيث ينبغى أن أكون فيما لأبى » . فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما .. وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » ..

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الأردن ليعتمد منه — كما ورد فى انجيل متى — فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى الىّ ؟ .. فأجابه يسوع نسمح

الآن ، لأنه هكذا يجمل بنا أن نستوفى كل بر . فسمح له ؛ فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء .. واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوتا من السماوات يقول : هذا هو ابنى الحبيب » ..

وفى انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة ــ وهو انجيل العبريين ــ رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان أمه واخوته قالوا له ان يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا .. فقال لهم : « أى خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدى ! .. اللهم الا أن يكون هذا القول الذى قلت »

وليس فى الأناجيل ولا فى غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح فى طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية فى ذلك العصر يبدأ فى مكتب ملحق بالبيعة[1] فى كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها «حزان» أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر فى المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها فى الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » على هـذا الأمل ، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة الى بيت لحم عند مولده ، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى أسفار من النبوءات أن بيت لحم هى مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود ..

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع الى شىء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله

---

(١) البيعة : بكسر الهاء معبد اليهود ، أو كنيسة النصارى .

وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وان يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد ..

ومن البديهى أن كلمات يوحنا مع الفتى ابن الثلاثين فى ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها فى نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها فى مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيهــا اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها من البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان

وخلوة البرية هى احدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التى عالجها كل نبى قبل أن يصدع بما أمر به[1] ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد أن صام فى البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم اليه المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهــذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع : ومكتوب أيضا : لا تجرب الرب الهك . ثم أخذه ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها ان سجدت لى .. قال يسوع : أغرب عنى أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد »

قال انجيل متى بعد ذلك : ولمــا سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات

---

(١) يصدع بما أمر به : صدع بالامر تكلم به جهارا .

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردّته كلمات النبى النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التى مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها فى كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى[1] لمن يطلبه كحجارة الطريق؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ .. ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ .. كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الايمان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى نبوى بالرسالة المسيحية ؟..

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وان فترة الخلوة فى البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقفه السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعى العمل فى ضميره السليم

انه اذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل

---

(١) لقى : اللقى بفتحتين : الشيء المطروح الملقى لهوانه .

يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ؛ وبخاصة حين يبدو للنفس ان الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان الذى لا يأتى الا بضمان من البرهان ..

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق ... ليفعل ما يتوقاه ولايشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة ، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه

واصطبغت رسالته الأولى فى الجليل بصبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضى فى خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التى انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هى الدعوة الانسانية العامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التى ثبتت له فى طوية ضميره وهداه اليها وحى الله ، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء ..

أما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرمة

الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان

والأبوة الالهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات النـاس حسنات فاتخذوا منهن زوجات » (٦ تكوين)

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون : « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه : « أنتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) ... ووردت كذلك غير مرة فى المزامير حيث قيل : « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين أبناء الله » (٨٩)

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب : « أنتم أبناء الله الحى » ..

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ : « ان أباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة الله

أما ابن الانسان فقد وردت فى كتب العهـد القديم باللغة الآرامية ، وباللغـة العبرية ، وهى بالآرامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انســان ، وهى بالعبرية « ابن آدم » وتطلق فى كلتـا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فيناديه بابن الانسان

ووردت مرة فى سفر دنيال بلســان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الانسان (٨)

ووردت فى هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة انسان رآه النبى فى رؤى

الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول

أما كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع منها بمعنى « الانسان » ومنها قول السيد المسيح فى انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢)

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء فى لوقا ١٢ : « كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله » وجاء فى متى ١٠ : « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى الذى فى السموات »

وورد فى متى ١٦ : « انه لما جاء يسوع الى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ابن الانسان »

وورد فى مرقس ٨ : « ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ؟ »

فهى فى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال : « كما يجمع الزؤان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متى (١٣)

وهى اشارة كاشارة دنيال الى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة فى الموضعين ..

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها ، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : « لماذا تدعونني صالحا ؟.. ليس أحد صالحا الا واحدا ، وهو الله»

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان

وغنى عن القول ان هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها فى ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان »

لو جرت الأمور فى مجراها الذى استقامت عليه الدعوة فى الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هـذه الرسـالة فى طريقها سنوات دون أن تشتبك فى حرب صراح مع دولة الكهانة فى بيت المقدس

ولكن الحوادث حكمت حكمها فى السنة التى تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقـدس كما جرت عادة الأسر اليهودية ، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه واخوته وذوو قرباه

وكان عليه السلام يجارى أسرته فى هذه الشعائر التى لا ضير فيها ، ولم يكن يضيّق على الناس فى المحافظة على المأثورات التى تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف ، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته فى أفراحها القومية ويذهب الى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التى كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بنى اسرائيل

وفى سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه فى احدى السنوات منذ بشر برسالته فى الجليل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود الى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة[1] الهيكل وذوو الشأن فى العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان فى نضال

لكن كيف يكون الذهاب الى بيت المقدس فى هذه السنة ؟ ..

انه لايذهب الى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون فى السنوات الماضية ..

انهم يعدون الآن بالألوف فى أنحاء الجليل ، واذا قدرنا أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون

---

(١) سدنة الهيكل : حراسه وخدامه .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم الى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم الى المدينة ؟ .. ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث ..

أيذهب الى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذى لا يسهل معه التخفى والاستتار

وماذا يقع من أثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم ان رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، ونستتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق الى الأذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب الى بيت المقـدس ووجبت العلانـة ولا محيـد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين

وأدل شىء على أن الموقف الأخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف ـ موقف استخارة الحوادث ـ انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : « اعبر عنى هذه الكأس يا أبتاه .. كما تريد أنت لا كما أريد » ... ثم أيقظ تلاميـذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشط وأما الجسد فضعيف »

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم انها غزوة فتح تنجلى عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضـعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قـد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه نصر قريب

وتروى الأناجيل انه عليه السلام دخل الى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن موكب المسيح الموعود ، وانهم كانوا يحملون السعف[1] أمامه ويفرشـــون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد الى آخر الزمان

ويفهم من وصايا السيد المسيح انه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهان والفقهـــاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصـــون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميـــذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريســـيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » ..

ولم تسمع منه فى رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو اليه ، وانه من غير هـــذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش

الا انه من اللحظة الأولى فى بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التى ترصـــد له فى كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه .. اذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع الى هدف واحد وهو استدراجه الى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى مواضع العنت والاحراج تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد انه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصـــيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو ــ نيقوديموس ــ كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين

ثم حدث ما لابد أن يحدث فى عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ،

---

(١) السعف : ورق جريد النخل .

فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت الى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم فى بيت الله ، وانهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة الى مغارة لصوص

وكانت هذه هى الواقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور[1] الموغرة واتخذت من درء[2] الفتنة ذريعة الى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة

فليس للتاريخ كلمة راسخة فى خبر من الأخبار التى أعقبت حادثة الهيكل وحرّكت كهانه للبطش والنكاية ..

ففى حادثة الاعتقال لا يدرى متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لايهتدى اليه بغير دليل ..

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على انه قد تمّ على الرغم من اعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ؛ ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband فى كتابه «محاكمة المسيح» تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين الى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين انه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والأخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة

---

(١) الصدور الموغرة : أوغر صدر فلان · أحماه من الغيظ · (٢) درء : دفع ·

وان تناول عشاء الفصح كان مســاء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل . أما السنوات الأخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين

ومن الأخبار عن يوم التنفيــذ أن الأرض زلزلت وان القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس

وروى نقلة الأخبار أن القبر فتح فى اليوم التالى فلم توجد فيه جثة ، وان السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا انه طيف : « جسونى وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظــام » ... « وســألهم أعندكم هنا طعام ؟ .. فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شــهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلى Cheyme والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية فى مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجوتول Toll الســويدى وغيرهم من علمــاء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا الى التفرقة فى أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله فى هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذى يوجد فى طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هنــاك ضريح النبى أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الأعظمى الذى دون قبل مائتى سنة ان الضريح لنبى اسمه «عوس آصاف» ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم انه قدم الى هذه البلاد قبل ألفى سنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربى يسمى « اكمال الدين » محفوظ من ألف سنة ان اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وانه قال عنه انه رحــالة ســاح فى بلاد كثيرة وان كتاب « برلام

ديوشافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صـاحب «بشرى» وانهم يحفظون مثلا من أمثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة : « وجعلنـا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » وأورد تعليقا يقرب منه فى تفسير قوله تعالى : « انى متوفيك ورافعك الىّ » وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حيـاة عيسى بن مريم عليه السلام ..

***

وبعـد فهذا الكتاب مقصـور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقـد قل فيها نظير هـذه العبقرية العالية فى تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا أن نوفق لزيادة شيء الى هـذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا فى هذه الصفحات الى اثارة الجدل فى مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه

ولانستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت فى موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التى تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة الى هـداية الهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الانسـان ، فلم تنقض أربعون سـنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجدّدت فيه .. ثم قامت للضمير الانسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان

فى الختام : لو عاد المسيح

فى احدى روايات الكاتب الروسى العظيم — دستيفسكى — بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الأرض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة ..

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش — المفتش الأعظم — يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق

ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « اننى أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟.. لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟ .. »

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم .. والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس أثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه فى الوقت نفسه انه قد أطلقها له وفوض اليه الأمر فى اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان

من جـديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع الى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس فى عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، والا أسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينـا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرفين »

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار:

« ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقـدم الى المفتش الأعظم ــ وهو شيخ فان فى التسعين ــ فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار »

***

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيـد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه ..

كلا .. ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شىء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم فى نقمته على الرسول الكريم

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح الى الأرض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه ، وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ،

وان الوحى الحى فى طوية الانسان لا فى طوايا الكتب والأوراق

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة ، وأن يجد انسان اليوم كانسان الأمس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم

ذلك أقرب شيء أن يكون ..

وأقرب شيء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدى الى غناء اجتهاد

***

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ .. وفيم يأتى الأنبياء ويذهبون ؟ .. وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ .. فيم كل هذا ؟ .. فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ .. وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان

جاءوا وعادوا ..

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال ..

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده

الى جهـاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقـاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح فى هـذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج[1] بالضمير وتبتعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات ..

***

من ذا يقول ان عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحيـاة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء ..

من ذا يقول ان عناء الطب باطل اذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء

من ذا يقول ان الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟ ..

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الأسرار فى حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة أن الشر واقع ، ولـكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه

واذا وقع اثنـان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه : كالذى وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمـه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليـا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان

---

(١) تعتلج · اعتلج القوم · اقتتلوا وتصارعوا · والامواج التطمت · ومنه . اعتلج الهم فى صدره ·

قيمة يغايها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء ..

واذا قلنا يوما ان الانسان فى هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم

***

انما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا أن دينا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران ..

أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ ..

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير!

***

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ، ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التى لا موضع فيها

لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم النـاس فى العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ ان عقيـدة الانسان شىء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضـاة للداعى أو ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيـدة مسألة الانسان ، لا شـأن للأنبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجهـا كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيـدة الى آخر الزمان ..

فهرس

هذا الكتاب

هذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على اقدارها واسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة . وقد كتب لنا أن نوفق لزيادة شيء الى اثارة الجدل في مســائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما اسلفنا ان نقرر على وجــه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت في موعدها حيث اسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من ابناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة الى هداية الهية تحيط بكل من يهتدي من بني الانسان ، فيه ... ثم قامت للضمير الانساني دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما الهم داعيها ان يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانســـان .

